الكتاب رقم
(١١)

موسوعة تعظيم علّام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

الرّغبة



تأليف
إبراهيم بن عبد الرحمن التميجي
غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

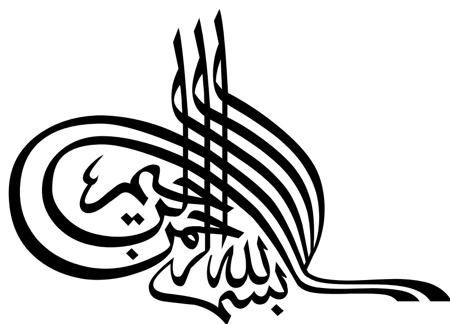
الكتاب رقم (١١)

الرغبة إلى الله تعالى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين



فهرس المحتويات



مُقَدِّمَة

الحمد لله أنزل الذِّكر بلسان عربي وحفظه، ودَلَّ عبده على طريق الهدى وبَشَّرَه وأنذره ووعظه، له الملكُ وله الحمد، بسط الآمال ونشرها، وطوى الآجال وسترها، أحمده سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وَسِعَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعلمًا، وقَدَّرَ المقادير حكمةً وحكمًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تقي النَّدَامة برحمة الله يوم الحسرة، وتنجي صاحبها بإذن الله ساعة العسرة. وأشهد أنَّ نبينا محمدًا عبد الله ورسوله، بَلَّغَ الرسالة، وأَوْضَحَ الدَّلالة، صَلَّى الله وسلم وباركَ عليه وعلى آله وأصحابه السَّادةِ الأبرار، والتَّابعين ومَنْ تبعهم بإحسانٍ ما تعاقَبَ اللَّيل والنَّهار، وسَلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ: فهذه رسالة يسّرها الله تعالى في بيان جملة من مسائل الرغبة إلى الله تعالى والدار الآخرة، جعلنا الله جميعًا من أهل تحقيقها، أنه وليُّنا ومولانا وربُّنا ومعبودنا، عزّ جاره وجلّ ثناؤه ولا إله غيره.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

٩/ ٨/ ١٤٣٨

aldumaiji@gmail.com

التعريف

لهذا الكتاب علاقة وطيدة بكتاب الرجاء؛ فكلاهما طلب شيء، وتطلعٌ إليه. والراء والغين والباء أصلان؛ أحدهما: طلبٌ لشيء، وهو المراد هنا، والآخر: سعةٌ في شيء. قاله ابن فارس[١]. قلت: ولعل الثاني عائدٌ إلى الأول فينتظمهما إرادة الخير الكثير الواسع. لذلك قال الراغب الأصفهاني: الرغبة هي السعة في الإرادة. وتقول: رغبتُ في الشيء إذا أردته، فإن لم ترده فتقول: رغبتُ عنه. وتقول رغبتُ إلى فلان في كذا وأرغب إليك في كذا إذا سألته إياه[٢].

ورغب الرجل في الشيء رغبة فهو راغب. ويقال: رغب رغبة ورغبى. وتقول: إليك الرغباء، كما في تلبية عمر بن الخطاب حيث كان يقول: «والرغباء إليك والعمل»[٣]. والرغبة هي المرغوب فيها، فيقال: فلان وهوبٌ لكل رغيبة، والجمع رغائب[٤]. قال النمر بن تولب:

ومتى تُصبك خصاصةٌ فارج الغِنَى ... وإلى الذي يُعطي الرغائب فارغبِ

والرغبوة: المبالغة في الرغبة والضراعة فيها.

---

(١) معجم المقاييس (٣٩٢).

(٢) المفردات (٢٠٤) وقد جعل أصلها السعة فقط دون الطلب.

(٣) مسلم (١١٨٤).

(٤) معجم التهذيب (٢/ ١٤٣٢).

وفي التنزيل العزيز: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وفي دعاء أخذ المضجع: «**رغبة ورهبة إليك**»، قال ابن الأثير: أعمل لفظ الرغبة وحدها، ولو أعملهما معًا لقال: رغبة إليك ورهبة منك. وفي حديث أسماء: «أتتني أمي راغبة» أي تسأل شيئًا، وأرغبني في الشيء ورغّبني بمعنًى. والمَرَاغب: الأطماع، ورغب بنفسه عنه: رأى لنفسه عليه فضلاً[١].

وقريب من معنى الرغبة الابتغاء، بَيْدَ أنه لوحظ في الرغبة معنى الحرص، وفي الابتغاء معنى الشدة والاجتهاد.

والتعدية لها أثر في المعنى، فإن عديت الرغبة بـ«في» فهي التطلّع والأمنية والرجاء، كقولك: «أرغب في كذا». أما إن عديت بـ«إلى» متضمنة للسؤال أيضًا كقولك: «أرغب إليك في كذا».

أما الفرق بين الرغبة والرجاء؛ فالرجاء طمع والرغبة طلب. فالرغبة ثمرة الرجاء، فإنه إذا رغب الشيء طلبه، والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف، فمن رجا شيئًا طلبه ورغب فيه، ومن خاف شيئًا هرب منه. والمقصود: أن الراجي راغب، والخائف هارب. والرغبة في الحقيقة هي من الرجاء؛ لأن الرجاء طمع يحتاج إلى تحقيق، والرغبة سلوك على التحقيق، فالرغبة تتولد من الرجاء[٢] لكنه طمع، وهي سلوك وطلب. والرجاء طمع في مغيب عنه مشكوك في حصوله، إن

(١) اللسان (٤/ ١٨٤).

(٢) القاموس (٦٨٣).

كان متحققًا في نفسه، كرجاء العبد دخول الجنة، فإن الجنة متحققة لا شك فيها، وإنما الشك في دخوله إليها، وهل يوافي ربه بعمل يمنعه منها، أم لا؟ بخلاف الرغبة فإنها لا تكون إلا بعد تحقق ما يرغب فيه.

وبالجملة: فالرجاء طمع، والرغبة طلب. فإذا قوي الطمع صار طلبًا[١].



(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٥١، ٢٥٢).

فضل الرغبة إلى الله تعالى

قال الله تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح: ٧، ٨]، وقال جل شأنه واصفًا سادة عباده المرسلين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال مرشدًا عباده لما فيه فلاحهم: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]، وقال أهل الجنة التي طاف عليها طائف من الله عقوبة لهم وقد ندموا ورغبوا إلى ربهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ [القلم: ٣٢].

والرغيبة التي تستحق الرغبوت هي الجنة، قال سبحانه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال جل شأنه: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥]، ووعد سبحانه المؤمنين بجناته ووعده الصدق: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، وتأمل بشارته سبحانه للمجاهدين في سبيله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ

رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١، ٢٢] إي والله أشهدُ أن عنده أجرًا عظيمًا.

وتأمل دعواهم وتحيتهم في دار الخلود والنعيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٩، ١٠]، وهؤلاء الذين رغبوا إليه سبحانه جزاهم بغسل قلوبهم وصدورهم من كل غل وضغينة وحقد، فطابت لهم الحياة بجواره: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٥. ٤٨]، وهذه أخصُّ آية في خلودهم. وتأمل كرمه وجوده وفضله حيث يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨]، فهم في الفردوس الأعلى، فلا عجب ألا يريدوا التحوّل عنه مهما طالت بهم الآماد والأحقاب، وهل فوق جوار الكريم نعيم؟!

ثم تفكّر في خاتمة القول بعد استقرارهم في الجنان: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى

ﭐلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٣، ٧٥]، فكما ابتدأ خلقه بالحمد ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: ١] فناسب ختم الجزاء بالحمد كذلك، فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

وقال النبي ﷺ مرغبًا فيما عند الله: «**إذا سمعتم أصوات الديكة فإنها رأت ملكًا، فاسألوا الله وارغبوا إليه**»(١)، وفي تعليمه البراء بن عازب في ذكر أخذ المضجع قال: «**إذا أخذت مضجعك(٢) فتوضأ وضوءك للصلاة(٣) ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللّٰهم إني أسلمت نفسي إليك، وفوّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك(٤) رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت. واجعلهن آخر كلامك؛ فإن مُتَّ من ليلتك مُتَّ وأنت على الفطرة**»(٥)، قال: فردَّدْتُهُنّ لأستذكرهنّ فقلت: آمنت برسولك الذي أرسلت، قال: «**قل: آمنت بنبيك الذي أرسلت**»، وفي ذلك أهمية التأسي والتقيد بألفاظ الأذكار، ومن لزم ما صحّ من أذكار وأوراد استغنى تمامًا عما أحدثه الناس بعدها.

---

(١) أحمد (٢/ ٣٢١)، وصححه أحمد شاكر (١٦/ ١١٨).

(٢) أي أردت النوم في مضجعك.

(٣) فمن السنن النوم على طهارة.

(٤) أي توكلت عليه توكلاً كاملاً، كما يعتمد الإنسان بظهره إلى ما يسنده كي لا يقع.

(٥) الفطرة: الإيمان والإسلام.

«هذا ومِلَاكُ الشأن أربعة أمور:

نية صحيحة، وقوّة غالبة، يقارنهما رغبة ورهبة. فهذه الأربع هي قواعد السير إلى الله تعالى، ومهما دخل على العبد نقص في إيمانه وأحواله وظاهره وباطنه؛ فهو من نقصان هذه الأربعة أو نقصان بعضها.

فليتأمل اللبيب هذه الأربعة أشياء، وليجعلها سيره وسلوكه، ويبني عليها علومه وأقواله وأحواله، فما نَتَجَ من نتج إلا منها، ولا تخلف من تخلّف إلا من فقدها، والله المستعان»(١).

وعن خباب بن الأرتِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -وكان قد شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ- أنه راقب رسول الله ﷺ الليلة كلها حتى كان مع الفجر، فلما سلّم رسول الله ﷺ من صلاته جاءه خبّابٌ فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي؛ لقد صليتَ لله صلاة ما رأيتك صلّيت نحوها! فقال رسول الله ﷺ: **«أجل إنها صلاةُ رغبٍ ورَهَبٍ، سألت ربي عز وجل فيها ثلاث خصال، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة. سألت ربي عز وجل ألا يُهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا فأعطانيها، وسألت ربي عز وجل ألا يُظهر علينا عدوًّا من غيرنا فأعطانيها، وسألت ربي ألا يُلبسنا شيعًا فمنعنيها»**(٢).

---

(١) مجموع رسائل ابن القيم، رسالته إلى أحد إخوانه (٥٤).

(٢) الترمذي (٢١٧٥) وقال: حسن غريب صحيح، وصححه أحمد شاكر (٥/ ١٠٩)، والنسائي (٣/ ٢١٧) واللفظ له، وقال محقق جامع الأصول (٩/ ٢٠٠) كما قال الترمذي. وصححه الأرنؤوط في تخريج المسند (٢١٠٥٣).

وعن أبي مسعود الأنصاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: جاء رجل بناقة مخطومة[١] فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: **«لك بها يوم القيامة سبعمئة ناقة، كلها مخطومة»**[٢].

وعن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: **«عجب ربنا عز وجل من رجلين؛ رجلٍ ثار[٣] عن وطائه ولحافه من بين حَيِّهِ وأهله إلى صلاته، رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي. ورجل غزا في سبيل الله عز وجل فانهزموا، فعِلمَ ما عليه من الفرار، وما له في الرجوع؛ فرجع حتى أُهريق دمه، رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي، فيقول الله عز وجل لملائكته: انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي، ورهبة مما عندي حتى أُهريق دَمُهُ»**[٤].

وتأمل ارتباط الرَّغَبِ بالرهب وهو الإشفاق والخوف، وتأمل الجامع بين هذين الرجلين اللذين استحقا هذه المزية الجسيمة؛ حيث تميزا عن أقرانهما بأن حقّقا معنى الغُربة الاختيارية الجهادية للنفس، فلما كان الناس بين نوم ودعة ولحاف ووطاء وهروب من سيف الأعداء؛ قاما لله رب العالمين، فالأول لم يعلم

(١) أي فيها خطام، وهو قريب من الزمام وهو حبلٌ يُلَفُّ حول أنفِ الناقة يُشَدُّ على أعلى رأسها لِتُقادَ به.

(٢) مسلم (١٨٩٢).

(٣) ثار: قام بهمة ونشاط بلا كسل. وتأمل اختيار هذا اللفظ فلم يقل: قام، بل قال: ثار. وفي هذا من بيان حرص الرجل على ورده من الليل وخوفه من فواته.

(٤) أحمد (١/ ٤٦) وصححه أحمد شاكر (٦/ ٢٢) وحسنه الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٥٥).

به سوى خالقه فصفّ قدميه يراوح بينهما مناجيًا سيده ومولاه رغبًا ورهبًا، والآخر رأى أصحابه مولين أدبارهم فعلم ما عليه من الفرار من الفشل وكسر المسلمين والتبعات اللاحقة به وبهم، وما له في الرجوع لجبهة القتال من الأجر العظيم وإثبات محبته لإلهه ومولاه بتقديم نفسه ذبيحة وقربانًا لمولاه على يد أعدائه، فقاتلهم حاسرًا مهللاً راغبًا فيما عند ربه من النصر أو الشهادة، فاختار له مولاه أفضلهما لديه وهي الشهادة في سبيله مقبلاً غير مدبر، فاستحق بذلك مباهاة ربه تعالى به في الملأ الأعلى.

فخُذ من دمائي يا سميعًا لدعوتي ... فما أطيب الآلام إن كنتَ راضيا
ويا ربِّ قطّعني وفرّق مفاصلي ... بجوف طيورٍ أو بطون العوافيا
لئن عزَّ ديني واستبيحت جوارحي ... فأين مقام العزِّ إلا مقاميا

وقال رسول الله ﷺ يومًا: «**من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعملُ بهنّ، أو يُعلِّمُ من يعملُ بهنّ**» فقال أبو هريرة: قلت: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي، فعدّ خمسًا، وقال: «**اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنًا، وأحبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا، ولا تكثر الضحك؛ فإن كثرة الضحك تميتُ القلب**»(١).

وقد رغّب نبي الله ﷺ فيما عند الله، ورفع همّة نفوس المؤمنين إلى التطلع إلى

---

(١) الترمذي (٢٣٠٥) واللفظ له، وأحمد (٢/ ٣١٠) وحسنه محقق جامع الأصول (١١/ ٦٨٧) وهو حديث جامع حقيق بالنشر والدراسة والعمل به.

الأجور الوافرة والجوائز السنية عند البر الكريم سبحانه، فمن ذلك قوله ﷺ: **«إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ، فإنه من صلّى عليّ صلاةً صلّى الله عليه بها عشرًا، ثم سَلُوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة؛ حلَّت له الشفاعة»**(١).

فتلك المنزلة هي له إن شاء الله، فلا أكرم على الله منه، فمِن نُصْحِهِ لأمته بيّن لها أسباب شفاعته يوم القيامة كرامة من الله تعالى له. ومن هذه الأسباب: إجابة المؤذن ثم الصلاة عليه ثم سؤال الله عز وجل الوسيلة كما في هذا الحديث، كذلك من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٢)، فالله تعالى قد أكرم نبيه ﷺ بست شفاعات، منها ثلاث شفاعات خاصة به وهي: الشفاعة الكبرى التي يتأخر عنها أولو العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام حتى تنتهي إليه ﷺ فيقول: **«أنا لها»**(٣)، وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا لهم إلى ربهم حتى يريحهم من مقامهم في الموقف(٤)، وهذه الشفاعة هي المقام المحمود الذي وعده الله نبيه ﷺ بقوله عز وجل: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩]، فيحمده عليه الأولون والآخرون.

---

(١) مسلم (٣٨٤).

(٢) رواه البخاري (٢٢).

(٣) البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣).

(٤) في حديث طويل رواه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

والشفاعة الثانية الخاصة به ﷺ هي شفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف الله عنه العذاب في النار، فيستجيب الله له بأن يجعله في ضحضاح من نار وتحت قدمه جمرتان من نار يغلي منهما دماغه، وهو يرى أنه أشد الناس عذابًا بينما هو أهونهم عذابًا[(١)]. والشفاعة الثالثة هي شفاعته ﷺ في دخول أهل الجنة الجنة، كما في حديث أبي هريرة المتفق عليه.

أما الشفاعات الثلاث العامة له ولغيره من الأنبياء والمرسلين والشهداء الصالحين والأفراد والملائكة فهي: الشفاعة لقوم من العصاة قد استوجبوا النار بذنوبهم ألا يدخلوها. والشفاعة في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم أن يخرجوا منها، والأحاديث بها متواترة عن نبي الله ﷺ، وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة، وبدّعوا من أنكرها كالخوارج والمعتزلة، وصاحوا بهم من كل جانب ونادوا عليهم بالضلال. أما الشفاعة السادسة فهي الشفاعة لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفعة درجاتهم، وهذا مما لم ينازع فيه أحد.

وكل هذه الشفاعات ـ خلا الشفاعة في أبي طالب وإن كان لا يخرج من النار ـ مختصة بأهل الإخلاص الذين لم يتخذوا من دون الله وليًّا ولا شفيعًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١]، والذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم هم المؤمنون، كما قال

---

(١) بنحوه عند البخاري (٥١).

الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ليس كلّ خلقه عاتب، إنما عاتب الذين يعقلون فقال: ﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ أي: وَهُم المؤمنون أصحاب العقول الواعية. والإعلام هو الإعلام بأسباب المخافة والتحذير منها(١).

والشفاعة نوعان، الأولى: شفاعة منفية في القرآن، وهي الشفاعة للكفار والمشركين، وهؤلاء هم الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] وقوله سبحانه: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

الثانية: شفاعة مثبتة في القرآن، وهي خالصة لأهل الإخلاص، وقيّدها الله تعالى بأمرين، الأول: إذنه للشافع أن يشفع كما قال سبحانه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والثاني: رضاه عن المشفوع له كما قال جل وعلا: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فالشفاعة كلها ملك لله تعالى لا يملكها سواه، قال عز وجل: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ [الزمر: ٤٤] فليس لمن تُطلبُ من دونه شيء منها، وإنما تُطلب ممن يملكها دون كل من سواه؛ لأن ذلك عباده وتألُّه لا يصلح إلا لله وحده.

وإن القلب ليتفطّر حزنًا إذا رأى ما يصنعه الجهّال من سؤال الأموات الشفاعة لهم عند الله، فيسدّون على أنفسهم باب الشفاعة من حيث أرادوا فتحه!

وهذا لعَمْرُ الله هو الخذلان المبين، فهم بطلبها من الأموات قد أشركوا مع

(١) فتح المجيد، عبد الرحمن حسن آل الشيخ (٢٢٨).

الله وجعلوا له أندادًا، فطلب الشفاعة من الأموات شرك ناقض للتوحيد، والشفاعة إنما هي خاصة بأهل التوحيد. وتأمل قول الرب جل جلاله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣] قال أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ منبّهًا لقطع هذه الآية عروق الشرك: «نفى الله عما سواه كل ما يتعلّق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره مِلْكٌ أو قِسْطٌ منه، أو يكون عونًا لله، ولم يبق إلا الشفاعة، فبيّن أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النبي ﷺ **«أنه يأتي فيسجدُ لربِّه ويحمده لا يبدأ بالشفاعة أولًا، ثم يقال له: ارفع رأسك، وقُل يُسمع، واشفعْ تُشفَّعْ»** [(١)]، وقال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: **«من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه»**، فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

وحقيقته أن الله سبحانه هو الذي يتفضّل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن الله له أن يشفع، ليكرمَهُ وينال المقام المحمود.

فالشفاعة التي نفاها القرآن، ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع. وقد بيّن النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص»[(٢)].

---

(١) متفق عليه.

(٢) عن فتح المجيد (٢٣٣).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الكلام على تلك الآيات: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣] «وقد قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعها، فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريد عابده منه، فإن لم يكن مالكًا؛ كان شريكًا للمالك، فإن لم يكن شريكًا له؛ كان معينًا له وظهيرًا، فإن لم يكن معينًا ولا ظهيرًا، كان شفيعًا عنده، فنفى الله سبحانه المراتب الأربع نفيًا مرتبًا، متنقلاً من الأعلى إلى الأدنى، فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يطلبها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه. فكفى بهذه الآية نورًا وبرهانًا وتجريدًا للتوحيد، وقطعًا لأصول الشرك ومَوادِّه لمن عقلها.

والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمّنه له، ويظنونها في نوع وقوم قد خلوا من قبلُ ولم يُعقِّبوا وارثًا[(١)] فهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعَمْرُ الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك.

ثم قال: ومن أنواعه ـ أي الشرك الأكبر ـ طلب الحوائج من الموتى، والاستعانة بهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، فضلاً عمن استغاث به وسأله أن يشفع له إلى الله،

---

(١) أي لدينهم وضلالهم.

وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده، فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سببًا لإذنه، وإنما السبب كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن، وهو بمنزلة من استعان في حاجته بما يمنع حصولها، وهذه حالة كل مشرك، فجمعوا بين الشرك بالمعبود، وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد، ونسبة أهله إلى تنقّص الأموات، وهم قد تنقّصوا الخالق بالشرك، وتنقصوا أولياءه الموحدين بذمهم وعيبهم ومعاداتهم، وتنقّصوا من أشركوا به غاية التنقّص؛ إذ ظنّوا أنهم راضون منهم بهذا، وأنهم أمروا به، وأنهم يوالونهم عليه.

وهؤلاء هم أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم وما نجا من شَرَكِ هذا الشرك الأكبر إلا من جَرَّدَ توحيده لله، وعادى المشركين في الله وتقرّب بمقتهم إلى الله، واتخذ الله وحده وليّه وإلهه ومعبوده فجرّد حبه لله، وخوفه لله، ورجاءه لله، وذُلّه لله، وتوكُّله على الله، واستعانته بالله، والتجاءه إلى الله، واستغاثته بالله، وقصده لله، مُتّبعًا لأمره، متطلبًا لمرضاه، إذا سأل سأل الله، وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمل عمل لله، فهو لله وبالله ومع الله»[١].

ولما كان تقي الدين ابن تيمية في مصر جاءه ثلاثة رهبان من الصعيد، فناظرهم وأقام عليهم الحجة بأنهم كفار، وأنهم ليسوا على الدين الذي كان عليه إبراهيم والمسيح. فقالوا له: نحن نعمل مثل ما تعملون، واحتجوا بما يفعله بعض الجهلة من المنتسبة للإسلام فقالوا: أنتم تقولون بالسيدة نفيسة، ونحن نقول

---

(١) السابق (٢٣١-٢٣٣).

بالسيدة مريم، وقد أجمعنا نحن وأنتم أن المسيح ابن مريم أفضل من الحسين ومن نفيسة، وأنتم تستغيثون بالصالحين الذين قبلكم ونحن كذلك[١]!

فقال لهم: وإن من فعل ذلك؛ ففيه شبه منكم، وهذا ليس بدين إبراهيم الذي كان عليه، فإن الدين الذي كان إبراهيم عليه[٢]: ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له، ولا ندّ ولا صاحبة له، ولا ولد له، ولا نشرك معه ملكًا ولا شمسًا ولا قمرًا ولا كوكبًا، ولا نشرك معه نبيًّا من الأنبياء ولا صالحًا ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣]. ثم ذكر لهم حقيقة دين المرسلين. فلما سمعوا ذلك منه قالوا: الدين الذي ذكرته خير من الدين الذي نحن وهؤلاء عليه. ثم انصرفوا من عنده[٣].

(١) ولاحظ إنكار الفطر للشرك من أساسه ولكن تراكم طبقات الجهل على مر العصور أدّاهم لهذه الضلالة مع إنكارهم لها بداية!

(٢) ولما جاء أحد الناس لشيخ الإسلام بخبز يابس وقال له: قد أتيتُك بهذا الخبز من سماط الخليل على اسمك! فقال له: ليس لي به حاجة، أنا حاجتي إلى الدين الذي كان عليه الخليل، ومتابعة ملّة الخليل الذي أمر الله أمة محمد بمتابعتها. ليس لي حاجة بهذا الخبز، والخليل لم يعمل هذا، ولا أمر بهذا العدس، ولا كان يطعم ويضيف غير اللحم. قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ [الذاريات: ٢٦]. وأما العَدَس فهو شهوة اليهود. وقد سئل ابن المبارك عنه فقيل له: جاء حديث «أن العدس قدّسه سبعون نبيًّا» (موضوع، المقاصد الحسنة ٤٨٥) فقال: لا، ولا نصف نبي. الجامع لسيرة شيخ الإسلام (١٣٩) بتصرف يسير.

(٣) الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون، فصل في تكسير الأحجار (١٤٣، ١٤٤) بتصرف يسير.

ولاشتباه مسألة الشفاعة على الكثير فقد أفردها الإمام المجدّد رحمه الله تعالى بباب مستقل في كتابه النفيس (كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد)، وقد وُفّق هذا الإمام أيّما توفيق في تجديد الدين، ونقض أصول الشرك، ونفض غبار الجهل والشُّبَه عن قلوب كثير من الناس، رحمه الله تعالى ورفع منزلته وألحقنا به في الصالحين. وإن من أنفس ما خطته يده بعد كتاب التوحيد رسالة عزيزة جدًّا وعالية القدر، وفيها من وضوح الحجة وقوة البرهان ما يهدي الله بها من شاء من عباده، فقد تتبع رَحِمَهُ ٱللَّهُ شبه المشركين في باب توحيد العبادة على مرّ العصور، ثم انتظمها كشفًا وهتكًا بسيف الوحي من الكتاب والسنة في رسالته (كشف الشبهات)، ومن عرف قدر التوحيد والشرك عظّم أمر هذه الرسالة، وقد فتح الله عليه منها من فتوح العلم ما يشهد به كل متدبر منصف. وقد كان كثير من العلماء يحفظها عن ظهر قلب. فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«اعلم رحمك الله أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة، وهو دين الرسل الذي أرسلهم الله إلىٰ عباده، فأولهم نوح عليه السلام، أرسله الله إلىٰ قومه لما غَلَوا في الصالحين: ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونَسْر. وآخر الرسل محمد ﷺ وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين، أرسله الله إلىٰ أناس يتعبّدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيرًا، ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله، يقولون: نريد منهم التقرب إلىٰ الله، ونريد شفاعتهم عنده؛ مثل الملائكة، وعيسىٰ، ومريم، وأناس غيرهم من الصالحين. فبعث الله إليهم محمدًا ﷺ يجدد لهم دين أبيهم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ويخبرهم أن هذا التقرّب والاعتقاد محض حق الله لا يصلح منه شيء لا لملك مقرّب ولا لنبي مرسل

فضلًا عن غيرهما، وإلا فهؤلاء المشركون مقرّون ويشهدون أن الله هو الخالق الرازق وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي ولا يميت إلا الله، ولا يدبّر الأمر إلا هو، وأن جميع السموات السبع ومن فيهن، والأرضين السبع ومن فيهنّ كلهم عبيده وتحت تصرّفه وقهره.

فإذا أردت الدليل على أن هؤلاء المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يشهدون بهذا فاقرأ قول الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٣١]، وقوله: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩] وغير ذلك من الآيات.

فإذا تحققت أنهم مقرون بهذا، وأنه لم يُدخلهم في التوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ، وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة الذي يسميه المشركون في زماننا الاعتقاد، كما كانوا يدعون الله سبحانه ليلًا ونهارًا، ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من الله أو يدعو رجلًا صالحًا مثل اللات، أو نبيًّا مثل عيسى، وعرفت أن رسول الله ﷺ قاتلهم على هذا الشرك ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ

فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وكما قال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٤]، وتحققت أن رسول الله ﷺ قاتلهم ليكون الدعاءُ كله لله، والذبح كله لله، والنذر كله لله، والاستغاثة كلها بالله، وجميع أنواع العبادات كلها لله، وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يُدخلهم في الإسلام وأن قصدهم الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء يريدون شفاعتهم، والتقرُّب إلى الله بذلك هو الذي أحلّ دماءهم وأموالهم؛ عرفت حينئذٍ التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وأبى عن الإقرار به المشركون.

وهذا التوحيد هو معنى قولك: لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذي يُقصد لأجل هذه الأمور؛ سواء كان ملكًا أو نبيًّا أو وليًّا أو شجرة أو قبرًا أو جنيًّا، لم يريدوا أنّ الإله هو الخالق الرازق المدبر، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده، وإنما يعنون بالإله ما يعني المشركون في زماننا بلفظ السيد. فأتاهم النبي ﷺ يدعوهم إلى كلمة التوحيد وهي لا إله إلا الله، والمراد من هذه الكلمة معناها لا مجرد لفظها، والكفار والجُهّال يعلمون أن مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو إفراد الله تعالى بالتعلُّق، والكفر بما يُعبد من دونه والبراءة منه، فإنه لما قال لهم: قولوا: لا إله إلا الله، قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]. فإذا عرفت أن جُهّال الكفار يعرفون ذلك، فالعجب ممن يدعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جُهّال الكفار! بل يظن أن ذلك التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيء من المعاني، والحاذقُ منهم يظن أن معناها لا يخلق ولا يرزق إلا الله، ولا يدبر الأمر إلا الله، فلا خير في رجلٍ جُهَّال الكفار أعلمُ منه بمعنى لا إله إلا الله!

إذا عرفت ذلك معرفة قلب، وعرفت أن الشرك بالله الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ الآية [النساء: ٤٨]، وعرفت دين الله الذي بعث به الرسل من أولهم إلى آخرهم الذي لا يقبل الله من أحد سواه، وعرفت ما أصبح غالبُ الناس عليه من الجهل بهذا؛ أفادك فائدتين:

الأولى: الفرح بفضل الله وبرحمته، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وأفادك أيضًا: الخوف العظيم، فإنك إذا عرفت أن الإنسان يكفر بكلمة يخرجها من لسانه، وقد يقولها وهو جاهل فلا يُعذر بالجهل(١)، وقد يقولها وهو يظن أنها تقرّبه إلى الله كما ظنّ المشركون، خصوصًا إن ألهمك الله ما قصّ عن قوم موسى مع صلاحهم وعلمهم أنهم أتوه قائلين: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، فحينئذٍ يعظم خوفك وحرصك على ما يُخلصك من هذا وأمثاله.

واعلم أن الله سبحانه من حكمته لم يبعث نبيًّا بهذا التوحيد إلا جعل له أعداء كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة وكتب وحجج كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [غافر: ٨٣]، فإذا عرفت ذلك، وعرفت أن الطريق إلى الله

(١) وقد فصّلت ذلك في رسالة: (ويكون الدين كله لله).

تعالى لا بد له من أعداء قاعدين عليه، أهل فصاحة وعلمٍ وحجج؛ فالواجب عليك أن تعلم من دين الله ما يصير سلاحًا لك تقاتل به هؤلاء الشياطين الذين قال إمامهم ومقدّمهم لربك عز وجل: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٦،١٧]، ولكن إذا أقبلت على الله، وأصغيت إلى حجج الله وبيّناته، فلا تخف ولا تحزن ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

والعاميّ من الموحدين يغلب الألف من علماء هؤلاء المشركين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]، فجند الله هم الغالبون بالحجة واللسان، كما أنهم الغالبون بالسيف والسنان، وإنما الخوف على الموحّد الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح. وقد منّ الله تعالى علينا بكتابه الذي جعله تبيانًا لكل شيء وهدى وبشرى للمسلمين، فلا يأتي صاحب باطل بحجة إلا وفي القرآن ما ينقضها ويبين بطلانها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، قال بعض المفسرين: هذه الآية عامة في كل حجة يأتي بها أهل الباطل إلى يوم القيامة.

وأنا أذكر لك شيئًا مما ذكر الله في كتابه جوابًا لكلامٍ احتجّ به المشركون في زماننا علينا، فنقول: جواب أهل الباطل من طريقين: مجمل، ومفصل. أما المجمل: فهو الأمر العظيم، والفائدة الكبيرة لمن عقلها، وذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا

ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧]، وقد صحّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله، فاحذروهم**»[١].

مثال ذلك إذا قال لك بعض المشركين: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، أو أن الشفاعة حق، وأن الأنبياء لهم جاه عند الله، أو ذكر كلامًا للنبي ﷺ يستدل به على شيء من باطله، وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكره، فجاوبه بقولك: إن الله ذكر أن الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه، وما ذكرته لك من أن المشركين يقرون بالربوبية، وأنه كفَّرهم بتعلقهم بالملائكة والأنبياء والأولياء مع قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] هذا أمرٌ محكم لا يقدر أحدٌ أن يغيّر معناه، وما ذكرتَهُ لي أيها المشرك من القرآن أو كلام النبي ﷺ لا أعرف معناه، ولكن أقطعُ أن كلام الله لا يتناقض، وأن كلام النبي ﷺ لا يخالف كلام الله عز وجل، وهذا جواب جيد سديد، ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله تعالى، فلا تستهن به، فإنه كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [فصلت:٣٥]»[٢].

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الجواب المفصّل، فاستقرأ أكبر حجج المخالفين من القبورية وأشباههم، ثم فندها ودحضها بما ملخصه:

---

(١) متفق عليه.

(٢) رسالة كشف الشبهات للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى.

١ . إن قالوا نحن لا نشرك بالله، بل نشهد أنه الخالق الرازق، ونعلم أنه لا أحد من الخلق يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولكن نحن مذنبون والصالحون لهم جاه عند الله، فنطلب منهم وهم يسألون ويطلبون لي ويقربوني إلى الله زلفى.

فالجواب بما تقدّم، وهو أن الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مقرون بها ذكر ومقرون أن أوثانهم لا تدبر شيئًا، إنما أرادوا الجاه والشفاعة، واقرأ عليه ما ذكر الله في كتابه ووضحه. فتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام بل لا بد من توحيد العبادة.

٢ . إن قال: إن هذه الآيات نزلت فيمن يعبد الأصنام، فكيف تجعلون الأنبياء الصالحين مثل الأصنام(١)؟

فالجواب: أن الكفار منهم من يدعو الأصنام ومنهم من يدعو الأولياء الذين قال الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ الآية [الإسراء: ٥٧]، ويدعون المسيح وأمه، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، ومنهم من يعبد الملائكة، قال الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠] فقد كفرهم الله تعالى جميعًا، وكفّرهم رسول الله ﷺ وقاتلهم، ولم يفرق بين من عبد الأصنام وبين من عبد الصالحين.

---

(١) الصنم: ما عُبِدَ من دون الله، وكان على صورة كائن حي، أما الوثن فيعم كل ما عبد من دون الله ولو كان حجرًا أو شجرًا أو جنيًّا أو غائبًا أو غيره، فكل صنم وثن وليس كل وثن صنمًا.

٣. فإن قال: الكفار يريدون منهم، وأنا أشهد أن الله هو النافع الضار المدبر، ولكني أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم.

فالجواب: أن هذا هو قول الكفار سواء بسواء، واقرأ عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وهذه الشبه الثلاث هي أكبر ما عندهم.

٤ . فإن قال: الالتجاء إلى الصالحين ودعاؤهم ليس عبادة.

فالجواب: هل تُقرّ أن الله فرض عليك إخلاص العبادة لله؟ فإذا قال: نعم، فقل له: فبين لي هذا الإخلاص الذي فرضه الله عليك، فإن أجاب بأنه إفراد الله بالقصد والطلب فقد هدم أصله، وإن لم يعرف فبيّن له الجواب بأن تتلو عليه قول الله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، واسأله: هل هذه الآية تدل على أن الدعاء عبادة، وكذلك قول رسول الله ﷺ: **«الدعاء هو العبادة»**(١) فلابد أن يقول: نعم، فقل له: فبما أنك أقررت أنها عبادة، ودعوت الله ليلاً ونهارًا خوفًا وطمعًا، ثم دعوت أحدًا غيره في نفس تلك الحاجة، هل أشركت في عبادة الله غيره؟ فلابد أن يقول: نعم.

---

(١) أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩) وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في المشكاة (٢٣٣٠).

ثم قل له: إذا عملت بقول الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] وأطعت الله عز وجل، ونحرت له، فهل هذه عبادة؟ فلابد أن يقول: نعم؛ لأن طاعة أمر الله هي العبادة. ثم قل له: فإن نحرت لمخلوق سواء كان نبيًّا أو جنيًّا أو غيرهما، هل أشركت في هذه العبادة غير الله؟ فلابد أن يقرَّ ويقول: نعم.

ثم قل له: المشركون الذين نزل فيهم القرآن هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك؟ فلابد أن يقول: نعم. فقل له: وهل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء والذبح والالتجاء وغير ذلك؛ وإلا فهم مقرون أنهم عبيده وتحت قهره، وأن الله هو الذي يدبر الأمر، ولكنهم دعوهم والتجؤوا إليهم للجاه والشفاعة.

٥.فإن قال: وهل تنكر شفاعة رسول الله ﷺ؟

فالجواب: إني لا أنكرها، ولا أتبرأ منها، بل إن نبينا ﷺ هو الشافع المشفّع، وأرجو شفاعته، ولكن الشفاعة كلها لله، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] ولا تكون إلا بإذن الله، وفيمن ارتضى الله أن يشفع له كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وهو سبحانه لا يرضى إلا لأهل التوحيد، كما قال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] فإذا كانت الشفاعة كلها لله، ولا تكون إلا بإذنه، وأنه لا يرضى إلا عن أهل التوحيد، تبين أن الشفاعة كلها لله، فأنا أطلبها منه فأقول: اللّهم شفعّه فيّ، اللّهم لا تحرمني شفاعته، وأمثال هذا.

٦.فإن قال: النبي أُعطي الشفاعة، وأنا أطلبها مما أعطاه الله.

فالجواب: أن الله أعطاه الشفاعة، ونهاك عن هذا، فقال: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

كذلك فإن الشفاعة قد أعطاها الله غير النبي ﷺ، فصحّ أن الملائكة والأفراط والأولياء والشهداء يشفعون، أنقول: إن الله أعطاهم الشفاعة فأطلبها منهم؛ فإن قلت هذا رجعت إلى عبادة الصالحين التي ذكرها الله في كتابه. وإن قلت: لا، بطل قولك: أعطاه الله الشفاعة وأنا أطلبها مما أعطاه الله.

٧.فإن قال: أنا لا أشرك بالله شيئًا، ولكن الالتجاء للصالحين ليس بشرك.

فالجواب: إذا كنت تقر أن الله حرّم الشرك أعظم من تحريم الزنا، وتقر أن الله لا يغفره كما قال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] فما هذا الذي حرمه الله وبيّن أنه لا يغفره؟ فإنه لا يدري، فقل له: كيف تُبرئ نفسك من الشرك وأنت لا تعرفه؟ وكيف يحرم الله عليك هذا، ويذكر أنه لا يغفره، ولا تسأل عنه، ولا تعرفه؟ أتظن أن الله يحرمه ولا يبينه لنا؟

٨.إن قال: الشرك هو عبادة الأصنام، ونحن لا نعبد الأصنام.

والجواب: ما معنى عبادة الأصنام؟ أتظنّ أن الذين عبدوها يعتقدون أن تلك الأخشاب والأحجار تخلق وترزق وتدبر أمرَ من دعاها؟ فهذا يكذّبه القرآن. وإن قال: هم من قصدوا حجرًا أو قبرًا أو غيره يدعون له ويذبحون له ويقولون: إنه يقربنا إلى الله زلفى، وأن الله يعطينا ببركته.

فقل: صدقت، وهذا هو فعلكم عند الأحجار والقبور وغيرها.

كذلك فقل له: في قولك: الشرك عبادة الأصنام، هل مرادك أن الشرك مخصوص بهذا، وأن دعاء الصالحين لا يدخل في ذلك؟ فهذا يردُّه ما ذكر الله في كتابه من كُفْرِ من تعلق بالملائكة أو عيسى أو الصالحين.

٩- إن قال: إن الذين نزل فيهم القرآن لا يشهدون أن لا إله إلا الله، ويكذبون الرسول ﷺ، وينكرون البعث، ويكذبون القرآن، ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ونصدق القرآن، ونؤمن بالبعث، ونصلي ونصوم، فكيف تجعلوننا مثل أولئك؟

فالجواب[١] من عدّة أوجه: أولاً: لا خلاف بين العلماء كلهم أن الرجل إذا صدّق رسول الله ﷺ في شيء وكذّبه في شيء؛ أنه كافر لم يدخل في الإسلام، وكذلك إذا آمن ببعض القرآن وجحد بعضه، كمن أقرّ بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة، أو أقرّ بالتوحيد والصلاة وجحد وجوب الزكاة، أو أقر بهذا كلّه وجحد الصوم أو أقر بهذا كله وجحد الحج.

ولمّا لم ينقد أُناسٌ في زمن النبي ﷺ للحج؛ أنزل الله في حقهم: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

---

(١) تأمل في هذا الجواب جيدًا وتفهّمه واحفظه عن ظهر قلب، فعامّة القبورية في هذا الزمان في حاجة إلى سماعه وبيانه وفهمه فهمًا تامًّا، فادعهم به إلى الحنيفية أيها الموحّد.

ومن أقر بهذا كله وجحد البعث؛ كفر بالإجماع وحلّ دمّه ومالُه كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]، فإذا كان الله قد صرّح في كتابه أن من آمن ببعض وكفر ببعض فهو الكافر حقًّا؛ زالت هذه الشبهة.

ثانيًا: إذا كنت تُقرّ أن من صدّق الرسول في كل شيء، وجحد وجوب الصلاة فهو كافر حلال الدم والمال بالإجماع، وكذلك الحال في الصوم والبعث وغيرهما مما أجمع العلماء على كفر من جحده؛ فمعلوم أن التوحيد هو أعظم فريضة جاء بها النبي ﷺ، فهو أعظم من الصلاة والزكاة والصيام والحج. فكيف يكون من جحد شيئًا من هذه الأمور ولو كان عمل بكل ما جاء به الرسول ﷺ ثم لا يكفر بجحد التوحيد الذي هو دين جميع المرسلين؟!

ثالثًا: هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوا بني حنيفة وقد أسلموا مع النبي ﷺ، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويؤذنون ويصلون. فإن قال: إنهم يقولون: إن مسيلمة نبي. قلت: هذا هو المطلوب، فإذا كان من رفع رجلاً إلى رتبة النبي ﷺ كفر وحلّ دمه وماله، ولم تنفعه الشهادتان ولا الصلاة؛ فكيف بمن رفع مخلوقًا - مهما علا شأنه - إلى رتبة جبار السموات والأرض؟! سبحان الله! ما أعظم شأنه! ﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الروم: ٥٩].

رابعًا: الذين حرّقهم علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بالنار كلّهم يدّعون الإسلام وهم من أصحاب علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وتعلّموا العلم من الصحابة، ولكن اعتقدوا في علي مثل اعتقادات عبّاد القبور والأولياء في هذا الزمان. فكيف أجمع الصحابة على قتلهم وكفرهم. أتظنّون أن الصحابة يكفّرون المسلمين؟ أتظنون أن الاعتقاد في الأولياء والقبور لا يضرّ، والاعتقاد في علي بن أبي طالب يُكَفِّر؟

خامسًا: بنو عبيد القدّاح الذين ملكوا مصر والمغرب في زمن بني العباس كانوا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويدّعون الإسلام، ويصلون الجمعة والجماعة، فلما أظهروا مخالفة الشريعة في أشياء دون ما نحن فيه؛ أجمع العلماء على كفرهم وقتالهم، وأن بلادهم بلاد حرب، وغزاهم المسلمون حتى استنقذوا ما بأيديهم من بلدان المسلمين.

سادسًا: إذا كان الأولون لم يكفروا إلا لأنهم جمعوا بين الشرك وتكذيب الرسول والقرآن وإنكار البعث؛ فما معنى الباب الذي ذكره العلماء في كل مذهب (باب حكم المرتد) وهو المسلم الذي يكفر بعد إسلامه؟ وقد ذكروا أنواعًا كثيرة، كل نوع منها يكفِّر ويُحل دم الرجل وماله.

سابعًا: الذين قال الله فيهم: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٤] أما سمعت الله كفّرهم بكلمة، مع كونهم في زمن رسول الله ﷺ، ويجاهدون معه، ويصلّون معه، ويزكّون ويحجون ويوحّدون؟

وكذلك الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ

﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٥،٦٦] فهؤلاء الذين صرّح الله أنهم كفروا بعد إيمانهم، وهم مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قالوا كلمة ذكروا أنهم قالوها على وجه المزح.

فتأمّل هذه الشبهة، وهي قولهم: تكفّرون من المسلمين أناسًا يشهدون أن لا إله إلا الله ويصلون ويصومون، ثم تأمل جوابها؛ فإنه من أنفع ما في هذه الأوراق.

ثامنًا: ما حكاه الله تعالى عن بني إسرائيل مع إسلامهم وعلمهم وصلاحهم أنهم قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وقول أناس من الصحابة: اجعل لنا ذات أنواط[١] فحلف رسول الله ﷺ أن هذا مثل قول بني إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾، علمًا بأن بني إسرائيل لم يكفروا بذلك، كذلك الصحابة الذين سألوا النبي ﷺ لم يكفروا لأنهم لم يفعلوا. ولا خلاف أن بني إسرائيل أو الصحابة لو فعلوا ذلك بعد نهيهم لكفروا.

وهذه القصة تفيد أن المسلم بل العالم قد يقع في أنواع من الشرك لا يدري عنها؛ فتفيد التعلُّم والتحرُّز ومعرفة أن قول الجاهل: التوحيد فهمناه. أن هذا من أكبر الجهل ومكائد الشيطان.

وتفيد أيضًا أن المسلم المجتهد إذا تكلّم بكلام كفر وهو لا يدري فنُبِّهَ على ذلك وتاب من ساعته؛ أنه لا يكفر، ومع ذلك فيغلّظ عليه الكلام تغليظًا شديدًا

(١) أحمد (٢١٩٠٠) وإسناده على شرط الشيخين، وصححه الألباني في المشكاة (٣٦٩).

كما فعل رسول الله ﷺ.

١٠. إن قال: إن النبي ﷺ أنكر على أسامة قتل من قال: لا إله إلا الله، كذلك حديث: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله**»(١).

فالجواب: قد قاتل الرسول ﷺ اليهود وكفّرهم وسباهم وهم يقولون لا إله إلا الله، وكذلك الحال في الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مع بني حنيفة، وكذلك الذين حرّقهم علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أما حديث أسامة فإنه قتل رجلاً ادّعى الإسلام؛ بسبب أنّه ظنّ أنه ما ادّعاه إلا خوفًا على دمه وماله، والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف عنه حتى يتبيّن منه ما يخالف ذلك. وأنزل الله تعالى في هذا المعنى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء: ٩٤] أي: فتثبتوا. فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت، فإن تبين منه ما يخالف الإسلام قُتِل، لقوله: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ ولو كان لا يُقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى. وكذلك الحديث الآخر معناه ما ذكرناه أن من أظهر الإسلام والتوحيد وجب الكفّ عنه إلى أن يتبين منه ما يُناقض ذلك.

١١. فإن قال: إن الاستغاثة بالأنبياء ليست شركًا لجواز الاستغاثة بالأنبياء يوم القيامة.

فالجواب: أن الاستغاثة بالمخلوق على ما يقدر عليه لا ننكرها، كما قال تعالى

(١) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

في قصة موسى: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]، وكما يستغيث الإنسان بأصحابه في الحرب وغيرها من الأشياء التي يقدر عليها المخلوق، ونحن أنكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند قبور الأولياء، أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله.

إذا ثبت ذلك فالاستغاثة(١) بالأنبياء يوم القيامة يريدون منهم أن يدعو الله أن يحاسب الناس حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف، وهذا جائز في الدنيا والآخرة، أن تأتي عند رجل صالح حي يجالسك ويسمع كلامك وتقول: ادعُ الله لي كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه في حياته، وأما بعد موته فحاشا وكلّا أنهم سألوه ذلك عند قبره، بل أنكر السلف على من قصد دعاء الله عند قبره فكيف دعاؤه نفسه.

١٢. إن قال: إن الاستغاثة بالأموات والغائبين ليست شركًا لأن جبريل عليه السلام عرض المساعدة على إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لما أُلقي في النار.

فالجواب: أن هذا من جنس الشبهة السابقة؛ فإن جبريل عرض عليه أن ينفعه بأمرٍ يقدر عليه، فإنه كما قال الله فيه: ﴿شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] فلو أذن الله له أن يأخذ إبراهيم لمكان آمن لفعل. وهذا كرجل غني له مال كثير يرى رجلاً محتاجًا فيعرض عليه أن يهب له شيئًا يقضي به حاجته، فيأبى ذلك الرجل المحتاج أن يأخذ ويصبر حتى يأتيه الله برزق لا مِنَّة فيه لأحد. فأين هذا من استغاثة العبادة والشرك؟!

---

(١) الاستغاثة: طلب إزالة الكرب.

تنبيه هام:

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ولنختم الكلام بمسألة عظيمة مهمة جدًّا تُفْهَم مما تقدّم، ولكن نُفرد لها الكلام لعظم شأنها، ولكثرة الغلط فيها، فنقول: لا خلاف أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل، فإن اختلّ شيء من هذا، لم يكن الرجل مسلمًا.

فإن عرف التوحيد ولم يعمل به؛ فهو كافر معاند كفرعون وإبليس وأمثالهما، وهذا يغلط فيه كثير من الناس فيقولون: هذا حقٌّ، ونحن نفهم هذا، ونشهد أنه الحق، ولكن لا نقدر أن نفعله، ولا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم، وغير ذلك من الأعذار. ولم يدر المسكين أن غالب أئمة الكفر يعرفون الحق، ولم يتركوه إلا لشيء من الأعذار كما قال تعالى: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ [التوبة: ٩] وقوله: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ [البقرة: ١٤٦] وغير ذلك من الآيات.

فإن عمل بالتوحيد عملاً ظاهرًا وهو لا يفهمه، أو لا يعتقده بقلبه فهو منافق، وهو شر من الكافر الخالص ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وهذه المسألة مسألة كبيرة طويلة تبيّن لك إذا تأملتها في ألسنة الناس ترى من يعرف الحق ويترك العمل به لخوفِ نقصِ دنيا أو جاهٍ أو مداراة، وترى من يعمل به ظاهرًا لا باطنًا، فإذا سألته عما يعتقد بقلبه فإذا هو لا يعرفه!

ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله، أولاهما: ما تقدّم من قوله تعالى: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ [التوبة: ٦٦]، فإذا تحققت أن بعض الصحابة

الذين غزوا الروم مع رسول الله ﷺ كفروا بسبب كلمة قالوها على وجه المزاح واللعب؛ تبيّن أن الذي يتكلّم بالكفر أو يعمل به خوفًا من نقص مالٍ أو جاهٍ أو مداراة لأحد أعظم ممن تكلّم بكلمة يمزح بها.

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أُكره مع كون قلبه مطمئنًا بالإيمان.

وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه، سواء فعله خوفًا أو مداراة أو مشحّة بوطنه أو أهله أو عشيرته أو ماله، أو فعله على وجه المزح، أو لغير ذلك من الأغراض، إلا المُكْره. والآية تدل على هذا من وجهين:

الأول: قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ [النحل: ١٠٦] فلم يستثن الله إلا المُكره، ومعلوم أن الإنسان لا يكره إلا على العمل أو الكلام، وأما عقيدة القلب فلا يُكره أحد عليها.

الثاني: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧] فصرّح أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهل أو البغض للدين أو محبة الكفر، وإنما سببه أن له في ذلك حظًّا من حظوظ الدنيا فآثره على الدين[١].



(١) كشف الشبهات للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب التميمي.

الدعاء

الرغبة إلى الله تعالى وفيما عنده تقتضي صلاح القلب ومتابعة الجوارح ولهج اللسان في السعي الحثيث لتحقيقه. ومن رحمة الله تعالى أن نوّع لعباده طرق تحصيل الخير، فالعبادات كلها من أسباب حصوله. وترك المحرمات كذلك من أسباب تحصيل رضى الله عز وجل والجنة، ومن أسهل وأجمع العبادات وأجلها وأحبها إلى الله تعالى وأدلّها على ضراعة العبد واستكانته وانطراحه بين يدي ربه، وتلبسه برداء الفقر والمسكنة، وتمثّله حال العبد المملوك المحتاج: الدعاء.

فالله تعالى يفرح إذا دعاه عبده بدعاء مسألة أو ثناء، فلذلك خلقه، فكل العبادات إنما هي أدعية، إما بلسان الحال؛ كامتثال الأوامر واجتناب المناهي، وإما بلسان المقال بدعاء الثناء كالذكر وقراءة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والصلاة والصدقة، ونحو ذلك، أو بدعاء المسألة وهو طلب العبد من ربه حاجته والرغبة إليه بها[(١)].

وقد قال ﷺ: «**ليس شيء أكرم على الله من الدعاء**»[(٢)]، وقال: «**أفضل العبادة الدعاء**»[(٣)]، وقال: «**الدعاء هو العبادة**» ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ

---

(١) وسأذكر نقولاً نافعة عن كتاب العلامة بكر أبو زيد رحمه الله (تصحيح الدعاء) مع شيء من التصرف والاختصار.

(٢) أحمد (٤/ ٢٦٧)، وابن حبان (٨٧٠) وحسنه شعيب الأرنؤوط والترمذي وقال: غريب، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٥٢/ ٧١٢).

(٣) الحاكم (١/ ٤٩١) ووافقه الذهبي، وتتبعها الألباني فضعف القتات وذكر تدليس =

أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠](١).

وإذا التفتّ إلى فاتحة كتاب الله تعالى وخاتمته، بدا لك من أسرار التنزيل عجبًا؛ فإن الله سبحانه افتتح كتابه الكريم في سورة الفاتحة بدعاء ثناء ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢-٤] ودعاء مسألة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٥، ٦] واختتم سبحانه كتابه الكريم بالدعاء في سورتي المعوذتين فهما دعاء مسألة متضمنًا دعاء ثناء.

وما هذه المرتبة السامية، والمنزلة العالية ـ والله أعلم ـ إلا لأنه يجتمع فيه من أنواع التعبد ما لا يجتمع في غيره، فيستدعي حضور القلب وعبادة الله بالتوجه والقصد والرجاء والتوكل والرغبة فيما عنده والرهبة من عذابه.

ويستدعي عبادة اللسان من اللهج بالتحميد والتقديس والطلب والمسألة والابتهال والتضرع.

ويستدعي عبادة البدن بالانكسار والاستكانة بين يدي الله تعالى والتذلل له،

= حبيب بن أبي ثابت، ثم قال: والحديث بمجموع الطريقين حسن (الصحيحة: ٤/١٠٦).

(١) أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٨٢٨).

والتبري من الحول والقوة إلا به، مستغيثًا به سبحانه دون سواه، إلى آخر ما هناك من أنواع العبادة التي يشتمل عليها الدعاء، ولهذا قال سبحانه في محكم كتابه: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧]، أي لولا عبادتكم الشاملة لنوعيها؛ دعاء طلب بجميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة، من الأقوال والأعمال والنيات والتروك، التي تملأ القلوب بعظمة الله وجلاله، ودعاء مسألة وطلب، وهو دعاء العبد ربه وطلبه إياه، وسؤاله ما ينفعه في الدنيا والآخرة، ودفع ما يضره، وكشف ما ألمَّ به. وهذا النوع هو الذي يملأ القلوب بالرغبة والانكسار بين يدي الله جل ثناؤه، قال الله سبحانه فيه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وفي هذه الآية سمّى الله تعالى دعاء المسألة عبادة، وسمّاه في آية أخرى دِينًا، فقال سبحانه: ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

ولِعِظَم شأنه وجلالة أمره فقد سماه الله تعالى صلاة، كما في قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

ومن استقرأ آيات القرآن العظيم في التحذير من الشرك بالله تعالى وجد أن أكثرها في التحذير من الشرك في الدعاء، ومن هنا صار الدعاء من صريح الاعتقاد.

والدعاء أكرم شيء على الله عز وجل، وهو طريق الصبر في سبيل الله، وصدق في اللجأ، وتفويض الأمور إليه، والتوكل عليه، وبُعد عن العجز

والكسل، وتنعّم بلذة المناجاة لله، فيزداد إيمان الداعي، ويقوى يقينه، والله سبحانه يحب من عبده أن يسأله و«**من لم يدعُ الله يغضب عليه**»(١).

والدعاء عبادة سهلة ميسورة، مطلقة غير مقيّدة أصلاً بمكان ولا زمان ولا حال، فهي في الليل والنهار والبر والبحر والجو، والسفر والحضر، وحال الغنى والفقر، والمرض والصحة، والسر والعلانية، فالدعاء ـ وايم الله ـ وظيفةُ العمر، وهي مع المسلم في أول منازل العبودية وأوسطها وآخرها، ليعيش العبد دائمًا في حال الالتجاء والافتقار إلى خالقه ومولاه سبحانه.

وملازمة الدعاء أخذ بأسباب رفع البلاء ودفع الشقاء، كما قال الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ [مريم: ٤٨]، وقال زكريا: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾ [مريم: ٤].

وكم من بلاء رُدّ بسبب الدعاء! فكم من بلية ومحنة رفعها الله تعالى بالدعاء، ومصيبة كشفها الله بالدعاء، وذنب ومعصية غفرها الله بالدعاء، فهو حِرْزٌ للنفس من الشيطان، وترس لرد السهام، وكم من رحمة ونعمة ظاهرة وباطنة استجلبت بسبب الدعاء، من نصر وعز وتمكين ورفع درجات في الدنيا والآخرة، فلله ما أعظمَ شأن الدعاء، وأعظم فضلَ الله ونعمته على عباده به!

فدعاء المسألة من أهم الواجبات، وأعظم المفروضات، ولذا كان دأب

(١) البخاري في الأدب المفرد (٦٥٨)، والترمذي (٢/ ٣٤٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٦٥٤).

الأنبياء، كما ذكره الله عنهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]. وتكاثرت نصوص الشرع المطهر في الترغيب في الدعاء بما هو نهاية في توجيه قلوب الخلائق لخالقهم، وأنه سلاح المؤمن، وحصن حصين للمسلم، ومنشور الولاية للعبد الأواه، الذي من أعطيه اتصل، ومن ضيّعه عُزل، ولهذا كان تركه قدحًا في الدين، وإعراضًا عن رب العالمين. ومن أعرض عن الله، أعرض الله عنه.



شروط الدعاء وآدابه

لابد لتحصيل مقصود الدعاء من مراعاة شروطه وآدابه، وجميع هذه الشروط والآداب اشتملت عليها آيتا الأعراف، قال الله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥،٥٦] سواء بطريق النص، أو الإشارة(١).

فمن ذلك:

١ـ أن يكون الداعي موحدًا لله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ممتلئًا قلبه بالتوحيد وشجرة الإيمان، فشرط إجابة الله للدعاء: استجابة العبد لربه بطاعته وترك معصيته، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

٢ـ أن يكون الدعاء مشروعًا، في أمر مشروع.

٣ـ أن يكون الداعي مؤمنًا أن الله سبحانه هو القادر وحده على إجابة دعوته.

٤ـ أن يحقق ركني العمل: الإخلاص والمتابعة.

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم (٣/ ٢).

٥.أن يتوجّه إلى الله وحده، بضراعة وابتهال.

٦.طيب المطعم والملبس والمسكن والمكسب.

٧.ألا يعتدي على نفسه بالمعاصي وهتك المحارم كالعقوق والقطيعة.

٨.ألا يعتدي في دعائه بإثم أو قطيعة رحم.

٩.ألا يستعجل الإجابة، ولا يقنط من ربه الكريم.

١٠. استفتاح الدعاء بالحمد والثناء على الله تعالى بما هو أهله، والصلاة والسلام على رسوله ﷺ، والأفضل أن تكون الصلاة في فاتحته ووسطه وخاتمته، والمرتبة الثانية في أوله وآخره، والمرتبة الثالثة في أوله.

١١.اليقين بالإجابة سواء معجّلة بذاتها أو مدّخرة بثوابها.

١٢.يبدأ بنفسه إذا دعا منفردًا، فإن النبي ﷺ كان إذا دعا بدأ بنفسه، وكذا إذا دعا لغيره، وهذه طريقة الأنبياء كما في القرآن، وبالجمع إذا كان يدعو بقوم يؤمّنون على دعائه.

١٣.الإيمان بقدرة الله على الإجابة.

١٤.التوسل إلى الله سبحانه بالتوحيد والأسماء والصفات وصالح الأعمال، ثم سؤال الحاجة[١].

وتأمل دعاء النبي ﷺ الذي علّمه أبا بكر ليقوله في الصلاة: «**اللّٰهم إني**

(١) جلاء الأفهام (٧٩، ٨٠).

ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»[١]، فجمع هذا الدعاء الثناء على الله أولاً، والاعتراف بالفقر والمسكنة والذنب ثانيًا، وطلب الحاجة ثالثًا[٢]، فهو من أعظم الأدعية.

١٥. الأخذ بجوامع الدعاء.

١٦. أن يختتم دعاءه باسم من أسماء الله الحسنى يناسب مطلوبه، وهذا دأب الأنبياء عليهم السلام في دعائهم وفي أدعية نبينا محمد ﷺ وهي كثيرة في السنة[٣].

١٧. الطهارة من الأحداث والأخباث.

١٨. نظافة الفم، فهو طريق القرآن.

١٩. طهارة المكان.

٢٠. إحسان الهيئة، واستقبال القبلة، وخفض الصوت، كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقد أثنى الله على عبده زكريا فقال: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ [مريم: ٣].

---

(١) متفق عليه.

(٢) تأمل سورة يوسف وما فيها من بيان ذلك واطّراده على لسان يعقوب ويوسف عليهما السلام.

(٣) جلاء الأفهام (١٨٨، ١٨٩)، الروح (٣٨)، التبيان (٥٩).

٢١. يدعو بدعاء غير مُلَحَّن، ولا متكلّف صنعة الكلام، ولا مسجوع؛ لأنه ينافي حال الضراعة.

٢٢. أن يكون الدعاء مُعربًا غير ملحون ـ قدر الطاقة ـ من غير تكلّف؛ لأن التكلف فيه، وفي تقويم اللسان، ومخارج الحروف، إلى غير ذلك من أنوع التكلف والتفاصح يضعف توجّه قلب الداعي إلى ربه(١).

٢٣. رفع اليدين قُبَالَة الوجه، ضامًّا إحداهما للأخرى، فإنّ رفع اليدين من أسباب الاستجابة، كما في قول النبي ﷺ: «**إن ربكم حيي ستّير، يستحيي من**

---

(١) وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عن رجل دعا دعاءً ملحونًا ـ أي غير مقيم للإعراب ـ فقال له رجل: ما يقبل الله دعاءً ملحونًا.
فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ: «من قال هذا القول فهو آثم مخالف للكتاب والسنة، ولما كان عليه السلف. وأما من دعا الله مخلصًا له الدين بدعاء جائز، سمعه الله، وأجاب دعاءه، سواء كان معربًا أو ملحونًا، والكلام المذكور لا أصل له، بل ينبغي للداعي إذا لم تكن عادته الإعراب ألا يكلّف الإعراب.
قال بعض السلف: إذا جاء الإعراب ذهب الخشوع، وهذا كما يكره تكلّف السجع في الدعاء، فإذا وقع بغير تكلف فلا بأس به، فإن أصل الدعاء من القلب، واللسان تابع للقلب، ومن جعل همّته في الدعاء تقويم لسانه أضعف توجّه قلبه، ولهذا يدعو المضطر بقلبه دعاءً يفتح عليه لا يحضره قبل ذلك، وهذا أمر يجده كل مؤمن في قلبه، والدعاء يجوز بالعربية وبغير العربية، والله سبحانه يعلم قصد الداعي ومراده وإن لم يقوّم لسانه، فإنه يعلم ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تنوّع الحاجات» الفتاوى (٢٢/ ٤٨٨، ٤٨٩).

عبده إذا رفع يديه إليه أن يردّهما صفرًا»[١]، فيشرع رفع اليدين في الدعاء إلا في حال الدعاء المقيّد بحال أو زمان أو مكان لم يثبت أن رسول الله ﷺ رفع يديه فيه مثل حال الدعاء في خطبة الجمعة، فإنه يكره رفعهما إلا إذا استسقى.

وقد تواتر رفعهما حال الدعاء عن النبي ﷺ في أحاديث ومواطن كثيرة، ورفع اليدين وبسطهما لله تعالى استكانة وعبودية واستطعام.

٢٤ـ إظهار الافتقار والمسكنة بين يدي الله حال الدعاء.

٢٥ـ الإكثار من الدعاء حال الرخاء، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: **«من سرَّهُ أن يستجيب الله له عند الشدائد والكُرب، فليكثر الدعاء في الرخاء»**[٢]، وقيل: من أدمن قرع الباب وَلَج[٣].

٢٦ـ الإلحاح في الدعاء، والملازمة له، فلا يملّ من الدعاء، فإن المُلِحَّ في الدعاء يكسب محبة الله له، ولا يهلك مع الدعاء أحد كما جاء الحديث بذلك.

٢٧ـ ألا يستبطئ الإجابة، ولا يضجر إذا تأخّرت ولا ييأس فيدع الدعاء، وإلا كان مستحسرًا فيأثم؛ إذ اليأس من رحمة الله من الكبائر، ومن استحسر انقطع، قال الله عز وجل: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ

---

(١) أحمد (٢٣٧١٤) وابن حبان في صحيحه وأبو داود والترمذي وحسنه، والحاكم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٢) الحاكم (١٩٩٧)، والترمذي (٣٣٨٢)، وقال: حديث غريب، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٩٣).

(٣) كما قيل: يا ابن آدم لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك.

عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩] ولا يستحسرون: أي لا يتعبون.

٢٨. ألا يقنط، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦]، وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أن رسول الله ﷺ سُئل عن الكبائر فقال: **«الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله»**(١)، وقال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يمنعنّ أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه، فإن الله عز وجل أجاب شرّ الخلق إبليس إذ قال: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴾ [الحجر: ٣٦، ٣٧].

٢٩. أن يحسن الظنّ بالله حال دعائه، كحاله في سائر حياته، قال الله تعالى في الحديث القدسي: **«أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني»**(٢)، فمن ظنّ بالله خيرًا أفاض عليه من خيراته، ومن لم يكن في ظنّه هكذا، لم يكن الله تعالى له هكذا.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قيل معنى: **«ظن عبدي بي»** ظن الإجابة عند الدعاء وظن القبول عند التوبة، وظن المغفرة عند الاستغفار، وظنّ المجازاة عند فعل العبادة بشروطها تمسكًا بصادق وعده»(٣) لكن إياك وظن المغفرة مع الإصرار، فذلك محض الجهل والغِرَّة.

---

(١) الطبراني في الكبير (٨٨٠٣) وصححه الهيثمي في مجمع الزوائد.

(٢) متفق عليه.

(٣) عن تصحيح الدعاء (٢٩).

٣٠ـ أن تكون الإجابة أغلب على قلبه، قال ﷺ: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب من قلب غافلٍ لاهٍ**»[١][٢].



(١) الترمذي (٣٤٧٩) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وحسنه الألباني في الصحيحة (٥٩٦).

(٢) تصحيح الدعاء (٢١ـ ٣٠) باختصار وتصرف.

أسباب إجابة الدعاء الظاهرة والباطنة

ومن سابغ نعم الله، وعظم آلائه على عباده؛ وعده سبحانه ـ ووعده حقٌّ ـ أنه لا يدعوه أحد إلا استجاب له، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وانظر إلى هذه اللطيفة القرآنية في هذه الآية؛ إذ ورد فيها لفظ: السؤال، ولم يأت بعده لفظ: قل. كما هو في آيات السؤال الأخرى في القرآن الكريم، وفي هذا ـ والله أعلم ـ إشارة إلى رفع الواسطة بين العبد وربه في مقام التعبّد والدعاء.

ومن استجابة الله سبحانه لدعاء عبده؛ ما يحصل للداعي من أداء هذه العبادة: الدعاء، والطلب، والمسألة، وإثابته عليها وإن لم تقع الإجابة. وهذا نوع من أنواع الإجابة.

ومن استجابة الله تعالى لدعاء عبده: ما يحصل لنفس الداعي من انشراح في صدره، وبهجة في فؤاده، لامتثال أمر ربه بعبادته، والاشتغال بذكره ودعائه، وإظهار الافتقار والحاجة إليه، وردّ القلب إليه بالتضرّع والاستكانة، ولهذا فإن الداعي يقصد بدعائه تعظيم الله وتمجيده، رجاء الأجر والمثوبة، مع الطمع بتحقيق ما وعد الله به من الاستجابة كلها، ومنها استجابة مطلوبه الخاص.

ودعوة المؤمن لا تُرد، والخير فيما يختاره الله له من تعجيل الإجابة، أو

يعوّضه الله بما هو أولى له عاجلاً أو آجلاً، بأن يدفع عنه من السوء مثلها، أو يدّخر له في الآخرة خيرًا مما سأل. إذن فعلى الداعي الأخذ بالأسباب الباطنة والظاهرة.

أما الباطنة: فبتقديم التوبة الخالصة من المآثم، ورد المظالم، وإطابة المطعم والمشرب والملبس والمسكن والمركب من الكسب الحلال، واجتناب المحرمات، والتعفّف عن الشبهات، وحضور القلب، والثقة بالله، وقوّة الرجاء، وقوّة اللجأ إليه، والخيفة والضراعة، وقرع النفس بالتخويف، والتفويض إلى الله، وقطع النظر عما سواه، كمؤمن آل فرعون، وناصح موسى عليه السلام، وتجنّب اليأس من الإجابة.

أما الظاهرة: فبتقديم عمل صالح، مثل: الصدقة، وتقديم الوضوء، والصلاة، ورفع اليدين، واغتنام ما ورد به الدليل من أنه مئِنَّة الإجابة في الأوقات الفاضلة، والأحوال الصالحة، والأماكن الشريفة.

فالأوقات الشريفة الفاضلة في العام: الدعاء يوم عرفة، وفي أوقات المشاعر لحاجّ بها، والتماس ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان.

وفي الأشهر: شهر رمضان، لاسيما في العشر الأخيرة منه[1].

وفي الأسبوع: يوم الجمعة، من جلوس الإمام على المنبر حتى تنقضي الصلاة

---

(١) والأشهر الحرم عامّة، وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب. وانظر: اللطائف لابن رجب.

ذلك اليوم[١]. ومن صلاة العصر حتى غروب شمسها، وبخاصة آخر ساعة.

وفي الساعات: في الأسحار، وجوف الليل الآخر، وساعة في يوم الجمعة، قيل: إنها آخر ساعة بعد العصر[٢].

وأما اغتنام الأماكن الشريفة؛ ففي مكة ـ حرسها الله تعالى ـ وفي المشاعر لحاجٍّ بها[٣].

وأما اغتنام الأحوال الصالحة؛ فالدعاء عند زحف الصف للمجاهدين في سبيل الله، وعند نزول الغيث، وبعد الوضوء، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وعند إقامة الصلاة المكتوبة، وفي حال السجود، فأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وأدبار الصلوات المكتوبات، وحال الصيام حتى يفطر الصائم، وعند فطره، ودعوة الحاج حتى يَصدُرَ من حجّه، ودعوة المظلوم، ودعوة الإمام العدل، ودعوة العالم، وعقب تلاوة القرآن، وبعد ختمه كما في أثر مجاهد وغيره[٤]، وفي مجالس الذكر، وفي اجتماع المسلمين، وإذا تعارَّ المرء من

(١) وانظر: زاد المعاد (١/ ١٠٤ـ١٠٦)، وتعليق أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ على جامع الترمذي (٢/ ٣٦٢).

(٢) قال ابن حجر في فتح الباري (٢/٤١٦): «قيل في تحديد ساعة الإجابة يوم الجمعة نحو من أربعين قولاً، أرجحها قولان؛ الأول: من جلوس الإمام على المنبر إلى انقضاء الصلاة، الثاني: آخر ساعة بعد العصر».

(٣) وفي بيوت الله تعالى.

(٤) ولا يصح من المرفوع شيء. وانظر: مرويات دعاء ختم القرآن للشيخ بكر أبو زيد.

الليل فقال: لا إله إلا الله ثم استغفر ودعا، وعند صياح الديكة، ودعوة المريض حتى يبرأ، وحال الحضور عند مريض، أو ميت، ودعوة المسلم لأخيه المسلم بظهر الغيب، ودعوة المسافر، ودعاء المضطر(١)، ومن ذكر الله عند النوم حتى غلبه النوم، وعند شرب ماء زمزم مع النية الصادقة، وعند الدعاء بـ«لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»(٢).

ودعاء الناس عقب وفاة الميت، وعند الدعاء لأخيه المسلم بظهر الغيب، وعند الدعاء في المصيبة بـ«إنا لله وإنا إليه راجعون، اللّهم أجرني في مصيبتي وأخلفني خيرًا منها»، والدعاء حال إقبال القلب على الله واشتداد الإخلاص، ودعوة المظلوم على من ظلمه، ودعوة الوالد لولده وعلى ولده، ودعوة المسافر، ودعوة الولد البار بوالديه، والدعاء عقب الوضوء إذا دعا بالمأثور في ذلك، والمؤمن يدعو ربه في كل زمان ومكان ولكن هذه المذكورة تخص بمزيد عناية(٣).

وختامًا: الدعاء بالأدعية التي أخبر النبي ﷺ أنها مظنة الإجابة، والدعاء باسم

---

(١) ويسمى دعاء الحال.

(٢) قال الشيخ صالح الفريج حفظه الله: معناه أن يلهج بهذا الثناء وفي قلبه حاجته بدون أن يسألها، فهذا كاف في الإجابة إن شاء الله، وقد بسط الكلام عنها شيخ الإسلام في الفتاوى (١٠/ ٢٣٧- ٢٥٤).

(٣) وينظر كذلك: الدعاء، د.سعيد بن وهب القحطاني (١٥، ١٦) وبعضها مفتقر لدليل.

الله الأعظم[١] كما في الحديثين اللذين رواهما ابن حبان في صحيحه والإمام أحمد

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ٢٣، ٢٤)، وقد رجح ابن تيمية وابن القيم أنه الحي القيوم، وقال غيرهما إنه ذو الجلال والإكرام، وقيل: الله، وقيل: المنان، وقيل: بديع السموات والأرض. وقيل: رب رب، وقيل: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، وقيل غير ذلك.

وقال الدكتور عبد الله الدميجي في كتابه (اسم الله الأعظم) بعد سياق الأقوال وأدلتها والإيرادات عليها: فالذي يترجح عندي ـ والله تعالى أعلم ـ هو أن الجزم بتحديد الاسم الأعظم وتعيينه على وجه قطعي من الأمور المتعذرة؛ لأن العلم به من الأمور الموقوفة على الوحي لا مجال للاجتهاد فيه؛ وما ورد عن النبي ﷺ في هذا الموضوع مما يمكن الاحتجاج به ليس صريحًا في تعيينه، وما روي عمن تقدم من العلماء في تحديده إنما هو اجتهاد منهم في فهم هذه النصوص الواردة والعلم بهذا الاسم توقيفي، ولا مجال للاجتهاد أو التجارب في تحديده، وإن كان أقواها من حيث الاستدلال: لفظ الجلالة (الله) كذلك: الحي القيوم.

وحيث تبين لي أنه لم يصح من الأدلة الواردة عن المصطفى ﷺ في هذا الموضوع إلا الأحاديث الأربعة: حديث بريدة، وحديث أنس، وحديث أسماء، وحديث أبي أمامة. على ضعف في بعض طرقها، وليس بين الأحاديث الأربعة اسم مفرد أو مركب مشترك بينها جميعًا، حتى لفظ الجلالة؛ فدل ذلك على صعوبة الجزم بتحديده على وجه التعيين.

وعليه فالذي يظهر لي ـ والله تعالى أعلم ـ أن تحديد هذا الاسم على وجه القطع غير متيسر، وقد أخفاه الله تعالى عنا بعد أن بيّن لنا الرسول ﷺ أهم خصائصه، وبعض مواطن وجوده، وأماكن تحريه؛ ليجتهد في الثناء على الله تعالى واللهج بأسمائه عز وجل والتوسل إليه بأكبر قدر ممكن من أسمائه الحسنى، خاصة التي لها مزية، لعلنا نظفر بدعوة لله تعالى بهذا الاسم فتتحقق الإجابة.

=

والترمذي، وهما: حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو ويقول: اللّهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد. فقال: «**والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى**»(١). وحديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو: اللّهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنّان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. فقال: «**لقد سأل الله باسمه الأعظم**»(٢).

وأنفعُ الدعاء: طلبُ العون من الله تعالى على مرضاته، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في عِظَمِ منزلة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]: «فالناس في هذين الأصلين ـ وهما العبادة والاستعانة ـ أربعة أقسام: أجلُّها وأفضلها: أهلُ العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية مرادهم، وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفقهم للقيام بها، ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الرب تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته، وهو الذي علّمه النبي ﷺ لِحِبِّه معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «**يا معاذ،**

=

ولعل الحكمة في إخفائه لا تبعد أن تكون مثل الحكمة في إخفاء تحديد التسعة والتسعين اسمًا التي من أحصاها دخل الجنة، ولذلك نظائر أخرى في الشريعة كإخفاء ليلة القدر وساعة الجمعة لحفز الهمم على الاجتهاد في العبادة والدعاء. (اسم الله الأعظم) (١٥٦ـ١٦٤) باختصار.

(١) أبو داود (١٤٩٣) بسند صحيح.

(٢) أبو داود (١٤٩٥)، وباقي أهل السنن، وصححه الألباني في المشكاة (٢٢٩٠).

والله إني لأحبّك، فلا تنس أن تقول دُبُرَ كل صلاة[١]**: اللّٰهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»**[٢]، فأنفع الدعاء: طلب العون من الله على مرضاته، وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يُضادّه وعلى تكميله، وتيسير أسبابه، فتأملها»[٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «تأملت أنفع الدعاء؛ فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]»[٤][٥].

---

(١) ورجح شيخ الإسلام أن موضع هذا الدعاء العظيم قبل التسليم؛ لأن دبر الشيء جزء منه.

(٢) أحمد (٦/ ٢٤٤) وأبو داود (١٥٢٢)، وصححه الألباني في المشكاة (٩٤٩).

(٣) الداء والدواء (٥-٩).

(٤) تصحيح الدعاء، بكر أبو زيد (٢١-٣٥) باختصار.

(٥) الداء والدواء (٩)، وقال تلميذه البزار في الأعلام العلية: «وكنت أسمع ما يتلو وما يذكر حينئذ، فرأيته يقرأ الفاتحة ويكررها، ويقطع ذلك الوقت كله، أعني من الفجر إلى ارتفاع الشمس في تكرير تلاوتها، ففكرت في ذلك لِمَ قد لزم هذه السورة دون غيرها؛ فبان لي. والله أعلم. أن قصده بذلك أن يجمع بتلاوتها حينئذ بين ما ورد من الأحاديث وما ذكره العلماء، هل يستحب تقديم الأذكار الواردة على تلاوة القرآن، أو العكس؟ فرأى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن في الفاتحة وتكرارها حينئذ جمعًا بين القولين وتحصيلاً للفضيلتين، وهذا من قوّة فطنته وثاقب بصيرته». الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، للبزار، بذيل العقود الدرية (٧٦٠).

دعاء السر

دعاء السر هو اللهج بالدعاء باللسان بدون الجهر به، بحيث لا يسمعه إلا الداعي أو من بجانبه. أما الدعاء بدون تحريك اللسان فالأشبه أن يكون تفكرًا لا دعاءً.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال الله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦] هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء: دعاء العبادة، ودعاء المسألة، فإن الدعاء في القرآن يُراد به هذا تارة، وهذا تارة، ويُراد به مجموعها، وهما متلازمان، فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره ودفعه. وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود، ولابد أن يكون مالكًا للنفع والضر.

ولهذا أنكر تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضرًا ولا نفعًا، وذلك كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦] وقال: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ [يونس: ١٨]، فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين الضر والنفع القاصر والمتعدي، فلا يملكون لأنفسهم ولا لعابديهم.

وهذا كثير في القرآن؛ يبيّن تعالى أن المعبود لابد أن يكون مالكًا للنفع والضر،

فهو يدعو للنفع والضر دعاء المسألة، ويدعو خوفًا ورجاء دعاء العبادة[١]، فعُلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزمة لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة.

وعلى هذا فقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] يتناول نوعي الدعاء، وبكل منهما فُسرت الآية. قيل: أعطيه إذا سألني، وقيل: أثيبه إذا عبدني، والقولان متلازمان، وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما، أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعماله في حقيقته المتضمنة للأمرين جميعًا، فتأمله فإنه موضوع عظيم النفع، وقلَّ من يفطن له، وأكثر آيات القرآن دالّة على معنيين فصاعدًا فهي من هذا القبيل[٢].

فقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ يتناول نوعي الدعاء، لكنه ظاهر في دعاء المسألة متضمن دعاء العبادة، ولهذا أمر بإخفائه وإسراره.

---

(١) وهو دعاء الثناء.

(٢) ثم مثل عليه فقال: «مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨] فُسر الدلوك بالزوال، وفسر بالغروب، وليس بقولين، بل اللفظ يتناولهما معًا، فإن الدلوك هو الميل، ودلوك الشمس ميلها، ولهذا الميل مبتدأ ومنتهى، فمبتدأه: الزوال، ومنتهاه: الغروب. واللفظ متناول لهما بهذا الاعتبار.
كذلك الغاسق يفسر بالليل وبالقمر، وليس ذلك باختلاف لتلازمهما، فإن القمر آية الليل، ونظائر هذا كثيرة» (الفتاوى ١٥/ ١٢).

قال الحسن: بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفًا، ولهذا كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسمع لهم صوت، ما كانت إلا همسًا بينهم وبين ربهم عز وجل؛ وذلك أن الله عز وجل يقول: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ وأنه ذكر عبدًا صالحًا ورضي بفعله فقال: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ [مريم: ٣].

وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:

أحدها: أنه أعظم إيمانًا؛ لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع الدعاء الخفي(١).

ثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم؛ لأن الملوك لا تُرفع الأصوات عندهم، ومن رفع صوته لديهم مقتوه، ولله المثل الأعلى، فإذا كان يسمع الدعاء الخفي، فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به(٢).

ثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبّه ومقصوده، فإن الخاشع الذليل إنما يسأل مسألة مسكين ذليل، قد انكسر قلبه، وذلت جوارحه، وخشع صوته، حتى إنه ليكاد تبلغ ذلّته وسكينته وضراعته إلى أن

---

(١) وأما قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] فالمراد بالسمع ههنا السمع الخاص وهو سمع الإجابة والقبول، لا السمع العام؛ لأنه سميع لكل مسموع (السابق ١٥/ ١٤).
قلت: ومنه: سمع الله لمن حمده.

(٢) وحتى في المعارك، فالسنة خفض الصوت بالذكر.

ينكسر لسانه فلا يطاوعه بالنطق(١) وقلبه يسأل طالبًا مبتهلاً، ولسانه لشدة ذلته ساكتًا، وهذه الحال لا تأتي مع رفع الصوت بالدعاء أصلاً.

رابعها: أنه أبلغ في الإخلاص(٢).

خامسها: أنه أبلغ في جمعية القلب على الذلة في الدعاء، فإن رفع الصوت يفرّقه(٣)، فكلما خفض صوته كان أبلغ في تجريد همته وقصده للمدعو سبحانه.

سادسها ـ وهو من النكت(٤) البديعة جدًّا ـ: أنه دالٌّ على قرب صاحبه للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد، ولهذا أثنى الله على عبده زكريا بقوله عز وجل: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]، فلما استحضر القلبُ قرب الله عز وجل، وأنه أقرب إليه من كل قريب؛ أخفض دعاءه ما أمكنه.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بعينه بقوله في الحديث الصحيح، لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير، وهم معه في السفر فقال: «**اربعوا على أنفسكم،**

---

(١) ورد عن بعض من سلف أنه أراد أن يدعو الله أو يذكره بلسانه ليلة كاملة، فلم يطق تحريك لسانه هيبة لله، فلما أصبح بال الدم، رحمه الله.

(٢) ولعل هذا مراد الحسن في تضعيف دعوة السر بسبعين ضعفًا، والمراد المبالغة لا التحديد، وهذا سائغ في لغة العرب.

(٣) وهذا ملحظ دقيق جدًّا.

(٤) النكت: هي الفوائد العلمية الدقيقة النفيسة، وصدق رحمه الله فما أعظمها من فائدة! ومن نصحه رحمه الله وحرصه أن نبه على أهمية تدبرها، وهو القائل: المعاني الدقيقة تحتاج إلى إصغاء واستماع. العقود الدرية (١٥٢).

فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»(١)، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص، ليس قربًا عامًّا من كل أحد، فهو قريب من داعيه، وقريب من عابديه، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ فيه الإرشاد والإعلام بهذا القرب.

سابعها: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يملّ، والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته، فإنه قد يملّ اللسان وتضعف قواه، وهذا نظير من يقرأ ويكرر، فإذا رفع صوته فإنه لا يطوله له، بخلاف من خفض صوته.

ثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات، فإن الداعي إذا أخفى دعاءه؛ لم يدر به أحد، فلا يحصل على هذا تشويش ولا غيره، وإذا جهر به فرطت له الأرواح البشرية ولابد، ومانعته وعارضته. ولو لم يكن إلا أن تعلّقها به يفزع(٢) عليه همّته؛ فيضعف أثر الدعاء، ومن له تجربة يعرف هذا(٣) فإذا أسر

---

(١) البخاري (٢٩٩٢) مسلم (٢٧٠٤).

(٢) لأن الهمة ساكنة مطمئنة بالدعاء، فإذا تعلّقت بها أرواح الأغيار فزعت من سكونها وتشتت نظامها.

(٣) وقال البزار عن شيخه ابن تيمية رحمهما الله: «وكان في ليله منفردًا عن الناس كلهم، خاليًا بربه عز وجل، ضارعًا، مواظبًا على تلاوة القرآن العظيم، مكررًا لأنواع التعبدات الليلية والنهارية... ثم يشرع في الذكر، وكان قد عُرفت عادته لا يكلّمه أحد بغير =

الدعاء أَمِن هذه المفسدة.

تاسعها: أن أعظم النعمة؛ الإقبال والتعبد، ولكل نعمة حاسد على قدرها دقّت أو جلّت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة، فإن أنفس الحاسدين متعلقة بها(١)، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد، وقد قال يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ الآية [يوسف: ٥].

وكم من صاحب قلب وجمعية(٢) وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها؛ فسلبه إياها الأغيار، ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله تعالى، ولا يطلع عليه أحد، والقوم أعظم شيئًا كتمانًا لأحوالهم مع الله عز وجل(٣)، وما وهب الله من محبته والأنس به وجمعية القلب، ولا سيما فعله للمبتدئ السالك، فإذا تمكن أحدهم وقوي وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه بحيث لا يخشى عليه من العواصف، فإنه إذا أبدى حاله مع الله تعالى ليُقتدى به، ويُؤتم به؛ لم يبال، وهذا باب عظيم النفع، إنما يعرفه أهله.

=

ضرورة بعد صلاة الفجر، فلا يزال في الذكر يُسمع نفسه، وربما يسمع ذكره من الروحانية، مع كونه في خلال ذلك يكثر من تقليب بصره نحو السماء، هكذا دأبه حتى ترتفع الشمس، ويزول وقت النهي عن الصلاة». الأعلام العلية (٧٦٠).

(١) هذه الفائدة متعلقة بما قبلها، ولأهميتها أفردها.

(٢) الجمعية: اجتماع القلب على شأن واحد. وضدها: الشعث، والتفرقة.

(٣) كالفتح على العبد في العلم بالله تعالى وحلاوة الإيمان والتألّه والتعبد والإيمانيات كمًّا وكيفًا ونحو ذلك.

وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء، والمحبة والإقبال على الله تعالى؛ فهو من أعظم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء عن أعين الحاسد؛ وهذه فائدة شريفة نافعة.

عاشرها: أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه وتعالى، متضمن للطلب والثناء عليه بأوصافه وأسمائه، فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سُمّي دعاء لتضمنه للطلب، كما قال ﷺ: «**أفضل الدعاء الحمد لله**»(١) فسمّى الحمد دعاء وهو ثناء محض؛ لأن الحمد متضمن للحب والثناء، والحب أعلى أنواع الطلب، فالحامد طالب للمحبوب، فهو أحق أن يُسمّى داعيًا من السائل الطالب، فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب، فهو دعاء حقيقة، بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطب الذي هو دونه.

والمقصود: أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه، وقد قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، فأمر تعالى نبيه ﷺ أن يذكره في نفسه. قال مجاهد وابن جُريج: أُمروا أن يذكروه في الصدور بالتضرع والاستكانة، دون رفع الصوت والصياح.

وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ الآية. وفي آية الدعاء: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ فذكر التضرع فيهما معًا، وهو التذلل والتمسكن والانكسار، وهو روح الذكر والدعاء.

(١) الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١١٠٤).

وخصّ الدعاء بالخفية لما ذكرنا من الحكم وغيرها، وخص الذكر بالخيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها، ولابد لمن أكثر من ذكر الله أن يثمر له ذلك محبته، والمحبة ما لم تقترن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها، بل تضره؛ لأنها توجب التواني والانبساط، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أن استغنوا بها عن الواجبات، وقالوا: المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب، وإقباله على الله، ومحبته له، فإذا حصل المقصود فالاشتغال بالوسيلة باطل(١).

ولقد حدثني رجل أنه أنكر على بعض هؤلاء خلوة له ترك فيها الجمعة، فقال له الشيخ: أليس الفقهاء يقولون: إذا خاف على شيء من ماله فإن الجمعة تسقط؟ فقال له: بلى. فقال له: فقلب المريد أعزّ عليه من عشرة دراهم ـ أو كما قال ـ وهو إذا خرج ضاع قلبه، فحفظه لقلبه عذرٌ مسقط للجماعة في حقه! فقال له: هذا غرور بك، الواجب الخروج إلى أمر الله عز وجل.

فتأمل هذا الغرور العظيم، كيف أدّى إلى الانسلاخ عن الإسلام جملة، فإن من سلك هذا المسلك؛ انسلخ عن الإسلام العام، كانسلاخ الحيّة من قشرها، وهو يظنّ أنه من خاصة الخاصة(٢).

وسبب هذا: عدم اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته؛ ولهذا قال بعض

---

(١) كما أُثر عن بعضهم حينما أُنكر عليه انغماسه في المعاصي فقال: أتُراه يُعذّب من يحبّه؟! عياذاً بالله من الغرور والأمن من مكر الله تعالى.

(٢) وانظر إلى طبقات الشعراني تجد أمثلة وافرة على من عناهم الشيخ. والله المستعان.

السلف: من عَبَدَ الله بالحب وحده فهو زنديق(١)، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري(٢)، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن.

والمقصود أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع في هذه المعاطب، فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق، وردّه إليها، كالخائف الذي معه سوط يضرب به مطيته لئلا تخرج عن الطريق، والرجاء حادٍ يحدوها يطيب لها السير، والحب قائدها وزمامها الذي يشوّقها، فإذ لم يكن للمطية سوط ولا عصا تردها إذا حادت عن الطريق؛ خرجت عن الطريق وخلّت عنها(٣)(٤).

فما حفظت حدود الله ومحارمه، ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته، ومتى خلا القلب من هذه الثلاث؛ فسد فسادًا لا يُرجى صلاحه أبدًا، ومتى ضعف فيه شيء من هذه؛ ضعف إيمانه بحسبه، فتأمل أسرار القرآن

---

(١) الزنديق: المنافق.

(٢) الحروري: الخارجي. والخوارج يكفرون مرتكب الكبيرة، فهم قد غلّبوا جانب الخوف، وعلى عكسهم المرجئة.

(٣) وكلام الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ عن علاقة الحب والرجاء والخوف ببعضها ليس استطرادًا، بل هو من صريح موضوع الدعاء.

(٤) والناظر في عبارات السلف في تقديم الخوف أو الرجاء أو التسوية يلحظ أنها أقوال متباينة ظاهرًا لكنها متفقة في الحقيقة، فمن نظر لحال العصاة غلّب الخوف، ومن نظر للمريض المخوف غلب الرجاء، ومن نظر إلى المسدّدين المسارعين بالخيرات ساوى بينهما. كما ذكره الشيخ صالح آل الشيخ في شرحه لكتاب التوحيد.

وحكمته في اقتران الخيفة بالذكر، والخُفية بالدعاء، مع دلالته على اقتران الخيفة بالدعاء والخُفية بالذكر أيضًا. وذكر الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء، لأن الدعاء مبني عليه، فإن الداعي ما لم يطمع في سؤاله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه، إذْ طلبُ ما لا طمع له فيه ممتنع، وذكر الخوف في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه، فذكر في كل آية ما هو اللائق بها من الخوف والطمع. فتبارك من أنزل كلامه شفاءً لما في الصدور»[١].



(١) الفتاوى (١٥/ ١٥ـ٢٢) باختصار.

الاعتداء في الدعاء

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] «قيل: المراد أنه لا يحب المعتدين في الدعاء، كالذي يسأل ما لا يليق به من منازل الأنبياء وغير ذلك. وقد روى أبو داود في سننه عن عبد الله بن معقل أنه سمع ابنه يقول: اللّهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: يا بُني، سل الله الجنة، وتعوّذ به من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء**»(١).

وعلى هذا فالاعتداء في الدعاء: تارة بأن يسأل ما لا يجوز له سؤاله من المعونة على المحرمات. وتارة يسأل ما لا يفعله الله(٢)، مثل أن يسأل تخليده إلى يوم القيامة، أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية من الحاجة إلى الطعام والشراب، أو يسأله بأن يطلعه على غيبه(٣)، أو أن يجعله من المعصومين(٤)، أو يهب له ولدًا من

(١) أحمد (٤/ ٨٦)، وأبو داود (٩٦)، وصححه الألباني.

(٢) أي اقتضت سنته ألا يفعله، وإلا فهو على كل شيء قدير، ووجه الاعتداء في الدعاء هنا هو مخالفته لسنة الله تعالى في إماتته البشر وعدم تخليدهم ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] وعلى هذا بقية الأمثلة.

(٣) أي الغيب المطلق، أو الخمس التي استأثر بها.

(٤) لأنها خاصة بالأنبياء. وفي المنع من الدعاء بالعصمة من الذنوب نظر، ولا يلزم من =

غير زوجة، ونحو ذلك مما سؤاله اعتداء لا يحبه الله، ولا يحب سائله.

وفُسر الاعتداء برفع الصوت أيضًا.

وبعدُ: فالآية أعم من ذلك كله، وإن كان الاعتداء بالدعاء مرادًا بها فهو من جملة المراد، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] في كل شيء، دعاء كان أو غيره، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وعلى هذا فيكون أمر بدعائه وعبادته، وأخبر أنه لا يحب أهل العدوان، وهم يدعون معه غيره، فهؤلاء أعظم المعتدين عدوانًا، فإن أعظم العدوان؛ الشرك، وهو وضع العبادة في غير موضعها، فهذا العدوان لابد أن يكون داخلاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

= ذلك أن يكون كالأنبياء، فللأنبياء خصائص تميزهم عن غيرهم كتلقيهم وحي الرحمن. وقد جاءت الأخبار بطلب العصمة من الذنوب بعامة ومن مسببها الشيطان كحديث أبي هريرة مرفوعًا في دعاء دخول المسجد: «**اللّٰهم اعصمني من الشيطان الرجيم**» (ابن ماجه ٧٧٣ وصححه الألباني)، وحديث حذيفة في حديث المَلَك: «**واعصمني فيما بقي من عمري**» (أحمد ٢٣٣٥٥) وضعفه الألباني، وحديث أبي هريرة في دعاء الاستفتاح مرفوعًا: «**اللّٰهم باعد بيني وبين خطاياي...**» متفق عليه، قال ابن حجر في الفتح: «باعد: المراد بالمباعدة محو ما حصل منها والعصمة عما سيأتي منها.. والذي قال: «**كل بني آدم خطاء**» (متفق عليه) هو الذي شرع الدعاء السلامة من الذنوب. فالأظهر الجواز والله أعلم.

ومن العدوان؛ أن يدعوه غير متضرع، بل دعاء هذا كالمستغني المدل على ربه، وهذا من أعظم الاعتداء لمنافاته لدعاء الذليل، فمن لم يسأل مسألة مسكين خائف فهو معتد.

ومن الاعتداء أن يعبده بما لم يشرع، ويثني عليه بما لم يثن به على نفسه، ولا أذن فيه، فإن هذا اعتداء في دعاء الثناء والعبادة، وهو نظير الاعتداء في دعاء المسألة والطلب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ عقب قوله: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ دليل على أن من لم يدعه تضرعًا وخفية فهو من المعتدين الذين لا يحبهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي، والداعي إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله؛ مفسد، فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم الفساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو من الشرك بالله ومخالفة أمره، قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، قال عطية في الآية: ولا تعصوا في الأرض فيمسك الله المطر، ويهلك الحرث بمعاصيكم. وقال غير واحد من السلف: إذا قحط المطر؛ فالدواب تلعن عصاة بني آدم فتقول: اللّهم العنهم فبسببهم أجدبت الأرض وقحط المطر.

وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره معه، أو مطاع

متبع غير الرسول ﷺ؛ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسول الله ﷺ، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة(١)، فإن الله أصلح الأرض برسول الله ﷺ ودينه، وبالأمر بالتوحيد، ونهى عن فسادها بالشرك به وبمخالفة رسوله ﷺ.

ومن تدبّر أحوال العالم؛ وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله ﷺ، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك؛ فسببه مخالفة الرسول ﷺ والدعوة إلى غير الله، ومن تدبّر هذا حق التدبر وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي غيره عمومًا وخصوصًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقوله تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦] إنما ذكر الأمر بالدعاء لما ذكر معه من الخوف والطمع، فأمر أولاً بدعائه تضرعًا وخفية، ثم أمر أيضًا أن يكون الدعاء خوفًا وطمعًا، وفصل الجملتين بجملتين: إحداهما: خبرية ومتضمنة للنهي، وهي قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ والثانية: طلبية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ والجملتان مقررتان للجملة الأولى، مؤكدتان لمضمونها، ثم لما تم تقريرها وبيان ما يضاده أمر بدعائه خوفًا وطمعًا،

(١) حتى ولو كان شعبًا أو برلمانًا أو سلطانًا أو مبدلاً للدين، فكل من حكم بغير شرع الله فهو طاغوت، وإن تغيرت المسميات، بأن قالوا: حرية، أو ديمقراطية، أو ملكًا أو غير ذلك.

لتعلّق قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ بقوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

ولما كان قوله: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مشتملاً على جميع مقامات الإيمان والإحسان، وهي الحب والخوف والرجاء؛ عقبها بقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي إنما تَنال من دعاه خوفًا وطمعًا فهو المحسن، والرحمة قريب منه؛ لأن مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة.

ولما كان دعاء التضرع والخفية يقابل الاعتداء بعدم التضرع والخفية عقّب ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ وانتصاب قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ و﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ على الحال، أي: ادعوه متضرعين إليه مختفين خائفين مطيعين.

وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فيه تنبيه ظاهر على أن فعل هذا المأمور هو الإحسان المطلوب منكم، ومطلوبكم أنتم من الله رحمته، ورحمته قريب من المحسنين، الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه تضرعًا وخفية، وخوفًا وطمعًا، فقرّر مطلوبكم منه، وهو الرحمة بحسب أدائكم لمطلوبه، وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ له دلالة بمنطوقه، ودلالة بإيمائه وتعليله، ودلالة بمفهومه، فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان، ودلالته بإيمائه وتعليله على أن هذا القرب مستحق بالإحسان، وهو السبب في قرب الرحمة منهم، ودلالته بمفهومه على بعده من غير المحسنين، فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة.

وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة؛ لأنها إحسان من الله عز وجل وهو أرحم الراحمين، وإحسانه تبارك وتعالى إنما يكون لأهل الإحسان؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وكلما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته، وأما من لم يكن من أهل الإحسان فإنه لمّا بَعُدَ عن الإحسان بعدت عنه الرحمة، بُعْدٌ بِبُعْدٍ، وقُرْبٌ بِقُرْبٍ، فمن تقرّب إليه بالإحسان؛ تقرب الله إليه بالرحمة، ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته.

والله تعالى يحب المحسنين، ويبغض من ليس من المحسنين، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه، ومن أبغض الله فرحمته أبعد شيء منه. والإحسان هٰهنا هو فعل المأمور به سواء كان إحسانًا إلى الناس أو إلى نفسه، فأعظم الإحسان الإيمان والتوحيد والإنابة إلى الله تعالى، والإقبال إليه، والتوكل عليه، وأن يعبد الله كأنه يراه إجلالاً ومهابة، وحياءً ومحبة وخشية(١).

فهذا هو مقام الإحسان، كما قال النبي ﷺ وقد سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال: «**أن تعبد الله كأنك تراه**»(٢)، فإذا كان هذا هو الإحسان فرحمته قريب من صاحبه، و﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: ٦٠] يعني هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يُحسن ربه إليه؟ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هل جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة؟

---

(١) فعلى قدر الإحسان يكون تحقيق الرغبة، ويكون قرب الداعي من الإجابة.

(٢) متفق عليه.

وقد ذكر ابن أبي شيبة وغيره من حديث الزبير بن عدي عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾ ثم قال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة**»»[1].

والحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، والله أكبر كبيرًا.



(١) الفتاوى (١٥/ ١٠-٢٨).

إطلالة نبوية

أخرج الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري في صحيحه[١]، قال: حدثنا زهير بن حرب، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا جرير بن حازم، حدثنا محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جُرَيْجٍ، وكان جريج رجلاً عابدًا، فاتخذ صومعة فكان فيها، فأتتهُ أُمُّهُ وهو يصلّي فقالت: يا جريج، فقال: يا رب، أُمي وصلاتي. فأقبل على صلاته، فانصرفت. فلمّا كان من الغدّ أتته وهو يصلّي فقالت: يا جريج، فقال: يا رب، أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فانصرفت. فلما كان من الغد أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج. فقال: يا رب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته. فقالت: اللّهم لا تُمِتْهُ حتى ينظر إلى وجوه المومسات.

فتذاكر بنو إسرائيل جريجًا وعبادته، وكانت امرأة بغيٌّ يُتمثَّلُ بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتننه لكم. قال: فتعرّضت له فلم يلتفت إليها. فأتت راعيًا كان يأوي إلى صومعته فأمكنته من نفسها، فوقع عليها فحملت، فلما ولدت قالت: هو من جريج، فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زنيت بهذه البغيّ فولدت منك، فقال: أين الصبي؟ فجاءوا به. فقال: دعوني حتى أُصلّي، فصلّى، فلما انصرف أتى الصبيَّ فطعن في بطنه وقال: يا غلامُ من

---

(١) كتاب البر والصلة والآداب، باب: تقديم بر الوالدين على التطوّع بالصلاة وغيرها (٢٥٥٠).

أبوك؟ قال: فلان الراعي! قال: فأقبلوا على جريج يقبّلونه ويتمسّحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت. ففعلوا.

وبينا صبيٌّ يرضع من أُمّه، فمرَّ رجلٌ راكبٌ على دابّةٍ فارهة، وشارةٍ حسنة، فقالت أمه: اللّهم اجعل ابني مثل هذا. فترك الثدي وأقبل إليه فنظر إليه فقال: اللّهم لا تجعلني مثله! ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع. قال: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بإصبعه السبابة في فمه، فجعل يمصُّها.

قال: ومرُّوا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيتِ، سرقْتِ، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل. فقالت أمُّه: اللّهم لا تجعل ابني مثلها. فترك الرضاع ونظر إليها فقال: اللّهم اجعلني مثلها! فهناك تراجعا الحديث، فقالت: حَلْقَى(١)! مَرَّ رجل حسن الهيئة فقلت: اللّهم اجعل ابني مثله، فقلتَ: اللّهم لا تجعلني مثله، ومرُّوا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون: زنيت، سرقت، فقلتُ: اللّهم لا تجعل ابني مثلها، فقلت: اللّهم اجعلني مثلها(٢).

قال: إن ذاك الرجل كان جبّارًا، فقلتُ: اللّهم لا تجعلني مثله، وإن هذه يقولون: زنيت، ولم تزنِ، وسرقتِ، ولم تسرق. فقلت: اللّهم اجعلني مثلها».

تم بحمد الله

---

(١) يقال: عقرى حلقى ومعناه: عقرها الله وحلق شعرها، وهذا مما تطلقه العرب ولا تريد معناه الحقيقي كتربت يداه، وثكلته أمه، وقاتله الله، ونحو ذلك.

(٢) مثلها: أي سالمًا من المعاصي كما هي سالمة. وتحت هذا الحديث من الفوائد ما لا يكاد ينحصر.

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

تأليف: إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

الصف والتنسيق والإخراج الفني
خالد محمد جاب الله
مكة المكرمة ـ جوال : 0502543917